بحوث في

نهج البلاغة

(٢)

الخلافة والخلفاء

علي الشيخ سليمان يحفوفي

المحتويات

مقدّمة ٥

الفصل الأوّل: الخلافة والخلفاء ٨

ضرورة الخلافة ٨

شروط الخليفة ١١

تعيين الخليفة ١٤

الفصل الثّاني: لمن كانت الوصيّة؟ ٢٣

الإشارات المفيدة ٢٣

النّص الصّريح ٢٥

الفصل الثّالث: المؤامرة الكبرى ٣٣

الأحداث الخطيرة ٣٣

تآمر الأنصار ٣٥

إحتجاج الإمام عليه السّلام ٤٠

موقف الإمام عليه السّلام ٤٥

الفصل الرّابع: نقد الخلفاء ٥٠

النّقد على أبي بكر ٥٠

النّقد على عُمر ٥٢

النّقد على عُثمان ٦٢

الفصل الخامس: مبرّرات الإمام عليه السّلام ٦٣

زُهد الإمام عليه السّلام بالخلافة ٦٣

فقدان النّاصر ٦٥

خشية وقوع الفتنة ٦٦

الفصل السّادس: خلافة عُثمان ٧٠

إستئثار عُثمان ٧١

وعظ الإمام عليه السّلام ٧٣

مروان الطّريد ٧٧

الدّفاع عن عُثمان ٨٠

عُثمان والثوّار ٨٣

الفصل السّابع: خلافة الإمام عليه السّلام ٨٥

كيفية البيعة ٨٥

مداحض ومزالق ٩٠

الفصل الثّامن: النّاكثون ٩٤

موقف عائشة ٩٤

موقف طلحة ٩٩

موقف الزُّبير ١٠٢

محاولة مساومة عليّ ١٠٤

إجتماع النّاكثين ١٠٨

تأثيرات النّاكثين ١١٣

التوجّه الى البصرة ١١٦

موقف أهل الكوفة ١٢٠

نهاية المطاف ١٢٥

الفصل التّاسع: القاسطون ١٢٧

البداية مع معاوية ١٢٧

حقيقة معاوية ١٣٠

الدّعوة للمبايعة من جديد ١٣١

وصف الإمام عليه السّلام لابن العاصّ ١٣٣
مساومة عمرو بن العاصّ ١٣٥
تماميّة بيعة الإمام عليه السّلام ١٣٨
التبرّؤ من دمّ عُثمان ١٤٠
وجوب قتال القاسطين ١٤٥
لقاء صفين ١٤٩
موازنة بين القوى ١٥١
إستفزازات معاوية ١٥٥

الفصل العاشر: المارقون ١٦١

عودة الى صفين ١٦١
لا حُكم إلا لله ١٦٤
سخرية الموقف ١٦٥
إجتماع الحَكَمَين ١٦٩
نهاية المطاف مع الخوارج ١٧٢

الفهرس الموضوعي ١٧٦

بحوث في نهج البلاغة

(٢)

الخلافة والخلفاء

علي الشّيخ سليمان يحفوفي

النّاشر

جمعية العلاّمة الشّيخ سليمان يحفوفي

(قدّس سرّه)

مقدّمة

بِسْمِ اللَّــهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

لعلّ أوّل مجابهة حدثت بين المسلمين بعضهم مع بعض، كان سببها منصب الخلافة، ولعل أوّل دماء أُريقت بين المسلمين كان الدّافع اليها هذا المنصب. وحتى بعد إنقضاء زمن الخلفاء، ومقتل آخرهم - عليّ بن أبي طالب عليه السّلام - فإنّ النّزاع حول هذه المسألة لم ينته، بل استمّر عنيفاً ودموياً في كثير من الأحيان، فكان مجرّد إبداء الشّخص رأيه بعدم إعترافه بشرعية خلافة البعض، كان ذلك كافياً لملاحقته من قِبل السلطة الحاكمة، وأكبر تهمة كانت يمكن أن تُوجّه لإنسان، هي عدم إعترافه بشرعيّة أحدٍ الخلفاء.

وحتّى الى يومنا هذا، بعد مرور أربعة عشر قرناً على بدء المسألة، وبعد انقسام الدولة الاسلاميّة الموحّدة الى دولٍ شتى، فإنّا نرى بعضاً من هذه الدول والتي تحكم بإسم الإسلام، ما يزال الصّراع فيها قائماً على هذه المسالة، فلا يزال المُنكِر لشرعية خلافة بعض الخلفاء مطارداً ومغضوباً عليه من السلطات الحاكمة بإسم الإسلام.

وفي الحقيقة إنّ هذه السلطات لا تفعل ذلك إكراماً للخلفاء

وتنزيهاً لهم عن الإتّهام - وإن كانت تدّعي ذلك - بل انّ الدّافع الحقيقي لها هو خوفها وتحسّبها من هذه الفئات، حيث أن الإعتراض على بعض الخلفاء يدل بالأولوية على عدم الرضا عن هذه السلطات، حيث أن السلطة لم تكن لتَصِل الى أمثال الحكّام الحاليين لو أن خلافة المسلمين سارت في مسارها الطبيعي الذي رسمه لها المشِّرع الأعظم.

والإعتراض على الخلفاء - وبالخصوص الأوّل والثّاني - كان من جهة توليهم منصباً ليس من حقهم، وإلا فإن سيرتهم كانت مرضية من جميع المسلمين. وأما الحكّام الحاليين، والذين يعتبرون أنفسهم امتداداً لهؤلاء الخلفاء، فبالإضافة الى إغتصابهم الخلافة من أصحابها، فهم يفقدون السّيرة الحسنة التي رسمها سلفهم.

و هذا الكتاب الذي بين أيدينا يتناول مسألة الخلافة والخلفاء، وذلك من خلال نهج البلاغة، وقد جرت عادة المؤلفين حين يتناولون هذا الموضوع أن يذكروا في مقدماتهم، إلتزامهم جانب الحياد طيلة البحث، ودرسهم المسألة درساً موضوعياً. ولكن نحن لا نقول ذلك، إذ لا نعتقد أن أحداً يستطيع التخلّي عن عقيدته ليكون محايداً، وبالرغم من هذا نستطيع القول أنّ بحثنا سيكون محايداً، لسبب وجيه وبسيط، وهو أنّا نتكلّم بلسان عليّ بن ابي طالب عليه

السّلام، وذلك من خلال نهج البلاغة، والرأي في عليّ عليه السّلام الذي يعترف به كافّة المسلمين أنه مع الحقّ والحقّ معه، ولذا فإنه الطّرف الوحيد الذي يمكن إفتراضه محايداً، فالحقّ لا يميل الى أحدٍ سوى الحقّ.

وبعد، فنسأل الله سبحانه أن يتقبّل منّا هذا العمل، ويوفّقنا لإستكمال هذه السلسلة من دراسة نظريات نهج البلاغة، والتي بدأناها «بالفلسفة الإلهية في نهج البلاغة».

كتابنا المقبل سيتناول موضوع «الطّبقات الاجتماعية في نهج البلاغة» إن شاء الله تعالى، إنه حسبنا ونعم الوكيل.

علي الشّيخ سليمان يحفوفي

بيروت، ١٩٨٠

الفصل الأوّل:

الخلافة والخلفاء

ضرورة الخلافة

الإنسان كائن إجتماعي بطبعه، بمعنى أنه لا يستطيع العيش منفرداً، بل يميل دائما نحو التجمّع، وهذا المَيل غريزة متأصّلة فيه. وإذا ما وُجد التجمّع الإنساني وُجدت معه العلاقات الإجتماعية، ووُجد النّشاط الإجتماعي والحركة الإجتماعية، وذلك كله يستلزم بشكل أكيد وجود سلطة مهمّتها تنظيم تلك العلاقات والنشاطات، وإلا فإن تصادمها أمر محتم لا بدّ منه، لأن مصالح الأفراد تتعارض كثيراً فيما بينها.

وضرورة السلطة وحتميتها أمر يقرّه الإمام عليّ عليه السّلام، فنراه يقول:

لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرِ بَرّ أَوْ فَاجِرِ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ،

وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِر (خطبة ٤٠)

وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ (١) مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً (خطبة ١٤٦)

السُّلْطَانُ وَزَعَةُ (٢) اللهِ فِي أَرْضِهِ (حكمة ٣٢٣)

والمجتمع العربي الجاهلي يحتاج الى تلك السلطة كأي مجتمع آخر، ولعله يكون أحوج من غيره اليها، حيث أن من خصائص بيئة البادية التي وُجد فيها، الدّعوة الى التحرّر والإنفلات من القيود التي تفرضها الحياة الإجتماعية.

وعندما جاء الإسلام كان الرّسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم هو الممثّل الأعلى لتلك السلطة، فالرسالة السماوية التي جاء بها كانت تفرض عليه أن يمسك بيده سلطتين معاً، سلطة التّشريع وسلطة التّنفيذ، فتشريع الأحكام والقوانين كان يسير جنباً الى جنب مع تنفيذها، فالإسلام لم يكن يكتفي بتشريع الأحكام وإبلاغها الى النّاس، بل كان يراقب تنفيذها عن كثب، وقد أعطى الصلاحيةّ بذلك

(١) النظام: السِّلْك ينظم فيه الخرز

(٢) الوَزَعة بالتحريك: جمع وازع، وهو الحاكم يمنع من مخالفة الشريعة

للنبـيّ المشـرّع صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم فـكان يرجـم ويجلـد ويقطـع. ولعـل مـن أقبـح الإفتـراءات علـى الإسـلام تفسـيره بأنـه عبـارة عـن مجموعـة مـن الأخلاقيـات، وبعـض الأحـكام التـي تَعنـى بتنظيـم علاقـة الإنسـان بربّـه، وليـس فيـه وراء ذلـك شـيء، فأمـور الحيـاة والمجتمـع ليـس للإسـلام أيـة علاقـة بهـا.

والحـقّ أن الإسـلام لـم يهمـل شـيئاً مـن أمـور الحيـاة، بـل إنـه وضـع القوانيـن التـي تنظّـم حيـاة الإنسـان وترافقه منـذ ولادته وحتـى وفاتـه. فالقوانيـن التـي تنظـم علاقـة الإنسـان بربـهّ هي جـزء ممـا جـاء به الإسـلام، إذ ينضَـمّ اليها قوانيـن تنظّم علاقة النـاس فيمـا بينهـم، فالحقـوق والعلاقـات الاجتماعيّـة وكل مواضيـع الحيـاة، قـد رسـم الإسـلام لهـا خطوطهـا العريضـة، جنبـاً الـى جنـب مـع قوانيـن العبـادات وعلاقة الإنسـان بخالقه.

فالإسـلام إذن جـاء لتنظيـم أمـور النـاس الدينيـة والدنيويـة، والنبـيّ صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم قـد جمـع فـي شـخصه السـلطتين الدينيـة والدنيويـة، وهاتـان السـلطتان تنتقـلان معـاً مـن بعـده الـى خليفتـه، وهـذا يعنـي أنّ دور الخليفـة متمّـم لـدور النبـيّ، كمـا أن الخلافـة دورهـا متمّـم للنبـوّة. صحيـح أنّ التشـريع قـد انتهـى بوفـاة النبـيّ صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم ولكـن هـذا لا يعنـي أن مجتمـع التوحيـد الـذي أراده والـذي حمـل راياتـه طـوال مـدة حياتـه، قـد تحقّـق وكملـت

أهدافه قبل وفاته، فهذا أمر يحتاج تحقيقه الى فترة زمنية أطول بكثير من المدّة التي أتيح له أن يحياها، فكان لا بدّ من ترك إكمال تحقيق هذا الهدف بين أيدٍ أمينة تتحمّل مسؤولية السّير بهذا الهدف في طريقه الصحيح. وهذا هو دور الخليفة أو الإمام، وقد عبّر عليه السّلام عن أهميةّ هذا الدّور بقوله:

وَإنَّمَا الاَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ (خطبة ١٥٢)

شروط الخليفة

وإذ قلنا أنّ دور الخليفة هو إمتداد لدور المستخلِف - الذي هو النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم - كان من الواجب أن يكون مُعداً إعداداً خاصّاً من أجل القيام بهذا الدّور الهام، فيجب أن يكون مستوعباً للرسالة السّماوية بشكل واضح وأكيد، حتى يستطيع الحفاظ على ما إئتُمن عليه، وحيث أنّه قدوة المسلمين ومحطّ أنظارهم وجب أن يكون معصوماً عن كل خطأ أو زلل، في القول والفعل، هذا بالإضافة الى تحلّيه بأكمل عقيدة وأكرم الأخلاق.

وفيما يلي نستعرض كلمات الإمام عليه السّلام التي يحدّد بها شروط الخليفة، يقول عليه السّلام:

لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَالاَحْكَامِ

وَإِمَامَـةِ الْمُسْـلِمِينَ الْبَخِيـلُ، فَتَكُـونَ فِـي أَمْوَالِهِـمْ نَهْمَتُـهُ (١) وَلاَ الْجَاهِـلُ فَيُضِلَّهُـمْ بِجَهْلِـهِ، وَلاَ الْجَافِـي فَيَقْطَعَهُـمْ بِجَفَائِـهِ، وَلاَ الْجَائِـفُ لِلـدُّوَلِ (٢) فَيَتَّخِـذَ قَوْماً دُونَ قَوْم، وَلاَ الْمُرْتَشِـي فِـي الْحُكْـمِ فَيَذْهَـبَ بِالْحُقُـوقِ وَيَقِـفَ بِهَـا دُونَ الْمَقَاطِـعِ (٣) وَلاَ الْمُعطِّـلُ لِلسُّـنَّةِ فَيُهْلِـكَ الأُمَّـةَ (خطبـة ١٣١)

لاَ يُقِيـمُ أَمْـرَ اللـهِ سُـبْحَانَهُ إِلاَّ مَنْ لاَ يُصَانِـعُ (٤) وَلاَ يُضَارِعُ (٥) وَلاَ يَتَّبِـعُ الْمَطَامِعَ (حكمة ١٠٥)

إِنَّ اللـهَ تَعَالَـى فَـرَضَ عَلـى أَئِمَّـةِ الْعَـدْلِ أَنْ يُقَـدِّرُوا أَنْفُسَـهُمْ بِضَعَفَـةِ النَّـاسِ، كَيْـلاَ يَتَبَيَّـغَ (٦) بِالْفَقِيـرِ فَقْرُهُ.(خطبـة ٢٠٩)

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ.(حكمة ١٦٦)

هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين، متحلّيا بأحسن صفات

(١) النّهْمة بفتح النون وسكون الهاء: إفراط الشهوة والمبالغة في الحرص.

(٢) الدُوَل جمع دُولة بالضم: هي المال، لانه يُتَدَاول أي ينقل من يد ليد

(٣) المقَاطع: الحدود التي عينها الله لها.

(٤) لايُصانع أي: لا يداري في الحق

(٥) المُضارعَة: المشابهة، والمعنى أنه لا يتشبه في عمله بالمبطلين.

(٦) يَتَبَيّغ: يهيج به الالم فيهلكه.

الكمـال وكرائـم الأخـلاق، لأن مهمّتـه التـي نُصّـب لأجلهـا ليسـت بالشـيء الهيّـن، فهـو مؤتمـن علـى الأمـوال والأنفـس والأعـراض، أي أعـزّ مـا يملك الإنسـان في هـذه الدنيا. فيجب أن لا يكـون بخيـلاً وإلا لصَبَـت نفسـه الـى الأموال التـى ائتُمن عليهـا فيكـون فـي ذلـك ضياعهـا. وبطبيعـة الحـال يجـب أن يكـون الخليفـة عالمـاً بأمـور الدّيـن والدّنيـا لأنه المرجـع الأوّل والأخيـر لعامّـة المسـلمين، وهـو المعلّـم الأوّل لهـم، فلـو كان جاهـلاً بالأمـور لـكان فـي ذلـك ضـلال رعيّتـه وضياعهـم.

وطبيعـة المنصـب الـذي يتـولاه الخليفـة تفرض عليـه أن يكون رحـب الصّـدر ودوداً وَصـولاً لأن حياتـه مـع الآخريـن ولهـم، فلـو كان جافّـا غليظـاً لانفضّـوا مـن حولـه وتركـوه، وبذلـك تنعـدم الفائـدة مـن وجـوده.

ولعـل مـن أهـم المقوّمـات التّـي يتّصـف بهـا المتولّـي لمنصـب الخلافـة، أن يكـون زاهـداً فيهـا، غيـر متمسّـك بهـا إلا مـن أجـل إقامـة الحـقّ ودفـع الباطـل، وإعمـار ديـن اللـه، وليـس عنـده مـن وراء ذلـك مـأرب خـاص أو شـخصي، وهـذا كان حـال الإمـام علـيّ عليـه السّـلام القائـل بصـدق مشـيرا الـى النّعـل التـى يحتذيهـا:

واللـه لَهِـيَ أَحَـبُّ إِلـيَّ مـن إِمرتكـم، إِلاّ أَن أُقيـم حقّـاً، أَو أَدفـع باطلاً.(خطبـة ٣٣)

فلـو كان همّـه منحصـراً فـي تولّـي المنصـب مـن أجـل نفسـه، لبـذل جهـده مـن أجـل تدعيمـه وتثبيتـه بشـتّى الطّـرق الممكنـة، حتـى لـو اضطـرّه ذلـك أن يزيـغ عـن الحـقّ، وينحـرف عـن جـادة الصّـواب و يأخـذ فـى تأليـف قلـوب بعـض النـاس الذّيـن فــي أيديهــم تدعيــم منصبــه أو القضــاء عليــه، دون الالتفـات الــى مـن سـواهم، كمـا فعـل عثمـان.

والتّقـوى هـي أسـاس كلّ عمـل صالـح، فالخليفـة يجب أن يكون متّقيـا للــه، لا تأخـذه فــي ديـن اللــه لومــة لائــم، فـلا يُصانــع ولا يُضــارع، فالباطـل لا يصبـح عنـده حقـاً أبـداً، والحـقُّ حـقٌّ عنـده مهمـا حـدث وإلا أهلَـك الأمـة.

تعيين الخليفة

بعـد أن عرفنـا أهميّـة منصـب الخلافـة والـدّور الـذي يشـغله الخليفــة، كان مــن الضــروري أن نتكلّــم عــن كيفيــة تعييــن الخليفـة، وهـذه المسـألة مـن المسـائل التـي دار حولهـا جـدال عنيـف بيـن المسـلمين والتـي إحتلّـت مركـز الصّـدارة طيلـة قـرون عديـدة. ولعـل الإحتمـالات الـواردة، أو التـي طُرحـت عـن كيفيــة تعييــن الخليفــة، ثــلاث:

الأوّل: أن يكـون النبـيّ صلّـى اللــه عليـه وآلــه وسـلّم قـد أهمـل

أمر الإستخلاف من بعده إهمالاً تاماً، وكأنّ هذا الأمر لا يعنيه .

الثّاني: أن يكون صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أوضح للمسلمين الطّريق الواجب عليهم سلوكه من أجل تعيين الخليفة، من دون تسمية شخص معين لذلك.

الثّالث: أن يكون قد نصّ على الخليفة من بعده نصاً صريحاً.

الإهمال وتبريره

أما الرأي الأوّل القائل بأن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أهمل أمر الإستخلاف من بعده إهمالا تاماً، فقد إنقسم القائلون به في مقام تبرير هذا الإهمال الى قسمين:

القسم الأول، يرى أن الهدف من بعثة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم هو تبليغ رسالة السّماء وتطبيق شريعة الإسلام على الأرض، وكل ما سوى ذلك ليس من إختصاصه، ومن الواضح أن تعيين الخليفة هو من أمور الدّنيا فلا يكون داخلاً في مهمّته. والحقّ أن تعيين الخليفة يعني تنظيم أمور الحكم كما يعني تطبيق أحكام السماء، وذلك من صميم إهتمامات النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد

سبق وقلنا أن دور الخليفة متمّم لدور المستخلِف الذي هو النبيّ، فالخليفة مهمّته ليست مقتصرة على الأمور الدنيوية، بل انّه في الوقت نفسه وصيٌّ على الرّسالة ومسؤول عن الحفاظ عليها.

القسم الثاني، يرى أن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أدرك بنظره الثّاقب أن المجتمع في تطوّر دائم، تبعاً لتطور الحياة والمجتمع، لذلك لم يشأ أن يقيّد النّاس بنظامٍ معين للحكم، وإلا أصبحوا مُلزمين به مهما تغيّرت الأحوال والأزمان، وحينئذ لن يتمكنوا من مواكبة التطورات والتغيرات. ونجيب هؤلاء أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان بمقدوره أن يعالج مشكلة الحكم بالرّغم من تطوّر الحياة، كما عالج سائر مشاكل الحياة الإقتصادية والإجتماعية. فبالرغم من تطور العلاقات بين البشر منذ تاريخ الرّسالة وحتى اليوم، فإن الإسلام قد عالج كل المشاكل الناجمة عن تلك التطورات لأن عناصر الأحكام التي جاء بها الإسلام على نوعين:

الأوّل: عناصر ثابتة، وهي المنصوص عليها في الكتاب والسّنة، وهذه باقية على حالها في شتى الظّروف والأحوال وليس لأحد أن يبدّل أو يغيّر فيها.

والثّاني: عناصر متحرّكة، وهي التي تواكب التطورات

الحادثة فتعطي الاجابة عنها. وهذه العناصر مستمدّة من العناصر الثابتة، فمهما تطورت العلاقات الإجتماعية والإقتصادية فإن الإسلام قادر على مواكبتها بواسطة هذا القسم من العناصر.

فكما هنا كذلك هناك. أي ان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان بمقدوره أن يضع بعض التّشاريع التي تنظّم أمور الحكم في ذلك العصر، ولكنها تكون مرنة وتحمل أسباب تطورها، فيكون بمقدورها أن تستمر في تنظيم أمور الحكم مهما تغيرت الظروف والأحوال.

فنستطيع أن نستلخص من ذلك أن الإهمال الذي افترضناه أولاً لا يمكن تبريره بوجه من الوجوه. ونضيف الى ما تقدم أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان عالما بما تسببه الخلافة من بعده من فتن، والأحاديث التي وردت عنه كثيرة، لهذا لا بدّ وأن نفترض أنه قد وضع حلًا يجنّب أمّته النّزاع والإختلاف، فمسؤوليته تجاه الرّسالة التي بُعث بها تتطلّب منه أن يحافظ عليها حتى بعد وفاته، لأنها ليست مقتصرة على مدة حياته بل هي لكل العصور. وقد كان صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما يذهب لغزوةٍ ما، لا يطمئنّ باله على المدينة حتى يستخلف عليها، فهل يُعقل أن يترك أمّته باكملها دون استخلاف؟

مفخرة في التّشريع

أصحاب الرأي الثّاني في كيفية تعيين الخليفة يذهبون الى أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أوضح للمسلمين الطّريق الواجب عليهم إتخاذه من أجل تعيين الخليفة. وهذا الطريق هو إجتماع الأمّة، فإذا ما اتّفق المسلمون على شخص ما، وسمّوه لمنصب الخلافة فإنه يكون المستحقّ لهذا المنصب.

وقد قال أصحاب هذا الرأي أن من مفاخر الإسلام أن يكون أوّل من إبتكر هذه الطريقة لتعيين الحاكم، إذ أنّ آخر ما توصلت اليه التشريعات الحديثة من أجل تعيين الحاكم هي بالإقتراع، الذي يشبه الى حدّ بعيد ما يذهب اليه أصحاب هذا الرأي، فمن مفاخر الإسلام إذا أن يكون قد سبق المدنيّات الحديثة بقرون عديدة في تشريع هذا النّوع من الديمقراطية في الحكم.

ولكن قبل أن نُؤخَذ ببريق هذه المفخرة، نرى من الواجب أن نبحث في ماهيتها بدقّة، لنرى بعد ذلك مدى مشروعيتها، ومدى صحّة القول أن الاسلام قد جاء بها وسبق اليها.

إن تشريع الإنتخاب والإقتراع من أجل تعيين الحاكم أو الخليفة، إنما مرجعه الى تحكيم رأي الأكثرية من الناس،

إذ مـن الواضـح أن البشـر يختلفـون فـي عواطفهـم وآرائـهـم وأذواقهـم، بحيـث يسـتحيل إتفـاق الجميـع علـى رأي واحـد، أو شـخص واحـد يعتبرونـه حاكمـا عليهـم.

نعـم، مـن مبتكـرات العصـر الحديـث أن تجـري الإنتخابـات مـن أجـل تحديـد رأي الأكثريـة مـن النـاس، ثـم العمـل علـى رأيهـا بالاسـتناد الـى سـلطة قويـة تتمكـن مـن فـرض رأي الأكثريـة علـى الجميـع وإسـكات الأقليـة وإخضاعهـا. فعندمـا يقـال أن هـذا الحاكـم قـد اختـاره الشـعب، فهـذا لا يعنـي أبدا أن الشـعب بجميـع أفـراده وطبقاتـه قـد اختـاره، لأن هـذا الاتفـاق مـن الجميـع شـبه مسـتحيل كمـا قلنـا، نعـم الأكثريـة مـن الناس هـي التـي إختارتـه وإنتخبتـه، وأنفـذت هـذه الاكثريـة رغبتها، وأسـكتت الأقليـة الرّافضـة اسـتناداً الـى السـلطة المختصـة.

والآن، بعـد أن فهمنـا كيفية تعيين الحاكم بالانتخاب والاقتراع، نعـود لنتسـاءل: هـل أن النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم قـد وضـع فعـلا قانونـا لتعييـن الخليفـة يشـبه الانتخـاب الـذي ابتكـره العصـر الحديـث؟

بالطبـع لا، فلـم يسـمع عـن النبـي أبـدا أنـه قـال: مـن إختارتـه الأكثريـة مـن النـاس ليكـون خليفـة فهـو الخليفـة. نعـم يحـاول البعـض ـ كأصحـاب الـرأي الثانـي ـ أن يُثبـت أنـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم قـد اوكَل أمـر تعييـن الخليفـة الـى

اختيـار الأمـة. ولكـن هـذا معنـاه ٱتفـاق الأمـة جمعـاء، وقـد قلنـا باسـتحالة مثـل هـذا الاتفـاق، حتـى أبـو بكـر وعلـيّ عليـه السّـلام - الوحيـدان اللـذان تـم تعيينهمـا مـن قِبـل النـاس - لـم يكـن الإتفـاق عليهمـا تامـا مـن جميـع المسـلمين، ومـن هنـا يظهـر بطـلان هـذا الـرأي ايضـا، وحينئـذ لا يبقـى أمامنـا سـوى الـرأي الثالـث، فلنبحـث عـن مـدى معقوليتـه.

الرأي الصّواب

الـرأي الثالـث مفـاده أن النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم قـد أوصـى بنـصٍّ صريـح علـى الخليفـة مـن بعـده، فبالإضافة الـى السـنّة المسـتفيضة الـواردة عـن النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم فـي تعييـن الخليفـة مـن بعـده، يمكـن الإسـتدلال أيضـا ببعـض الشـواهد التاريخيـة الدالّـة علـى ذلـك.

لـو عدنـا الـى صبيحـة ذلـك اليـوم حيـن اجتمـع المهاجـرون والأنصـار يتداولـون فـي أمـر تعييـن خليفـة لنبيّهـم الـذي فارقهـم منـذ مـدة وجيـزة تُحسـب بالسـاعات، يحدثنـا التاريـخ أنـه بعـد أن ارتفعـت أصـوات القـوم وبـدأ الخـلاف يظهـر بينهـم، قـام عمـر لينهـي الجّـدال ويختتـم الجلسـة، فصـاح بصوتـه الجهوري:«إبسـط يـدك يـا أبـا بكـر» فبسـط أبـو بكـر يـده، فبايعـه عمـر وهـو يقـول: «ألـم يأمـرك النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم أن تصلـي انـت يـا ابـا بكـر بالمسـلمين؟

فانـت خليفتـه ونحـن نبايعـك فنبايـع خيـر مـن أحـب رسـول اللــه منّــا جميعــا»

وهكـذا تـم الأمـر لأبــي بكـر. ولكـن يحق لنــا أن نتسـاءل: كيف فعلـت هـذه الكلمـات الموجـزة هـذا الفعـل السّـاحر؟ ومـن أيـن جـاءت هـذه الثّقــة لعمــر بمفعـول هـذه الكلمــات وتأثيرهــا، بحيـث رأينــاه يرافـق هـذه الكلمـات بـأن يمـد يـده بالمبايعـه؟ ثـم الــى مـاذا تشـير موافقـة أبـو بكـر علـى دعـوة عمـر إيـاه، بحيـث مـدَّ يـده دون تـردّد؟ وعـلام يشـير أيضـا سـكوت القـوم أمـام هـذه الكلمـات وسـقوط مـا بأيديهـم؟

لا نجـد جوابـا لـكل هـذه الاسـئلة إلا أن نفتـرض أن الجـوّ العام المسـيطر علـى هـذه الجلسـة، هـو أن الخلافـة إمتـداد طبيعـي للنبـوة، فجـاء عمـر ليذكّرهـم بهـذه العلاقـة التي لا يسـتطيعون إنكارهـا، ثـم ربـط كل ذلـك بتقديـم النبـي لأبــي بكـر ليُفهمهـم بأولويتــه، وحيـث أنــه لـم تكـن عندهـم هـذه الدّقـة ليفصلـوا بين العلاقــة المرتكـزة فــي أذهانهـم وبيـن النتيجــة التــي أرادهـا عمـر، بحيـث لـم يسـتطيعوا أن يؤكـدوا علـى الأولـى وينفـوا الثانيــة، فقـد وافقـوا علــى الأمريـن معـاً، وسـلّموا بإسـتدلال عمـر بأكملــه. وهـذا الإرتـكاز الحاصـل لديهـم بعلاقـة النبـوة بالخلافــة لــه تفسـير واحـد، وهـو إفتـراض وجـود نـصّ مـن النبــي صلّــى اللــه عليــه وآلــه وسـلّم علــى الخليفـة مـن بعـده، فينشــأ عـن هـذه الوصيــة شــعور بــأن الخلافــة ليسـت شـيئا

منفصـلاً عـن النبـوة.

والــى هنــا نكــون قـد توصلنــا الــى نتيجــة مهمــة، وهــي أن النبــي صلّــى اللــه عليــه وآلــه وسـلّم لـم يغـادر هـذه الدنيـا إلا بعـد أن أوصــى علــى الشــخص الـذي يتولــى خلافتــه. ولكـن البحـث لا ينتهـي هنـا، فـإن الأمـر الـذي لا يقـل أهميـة هـو أن نحـدّد هـذا الشـخص الموصــى لــه ونسـميه. وهـو موضـوع بحثنــا فــي الفصــل التالــي.

الفصل الثّاني:

لمن كانت الوصيّة؟

الذين يعترفون بوجود الوصيّة من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يحصرونها بين شخصين، قسم منهم يدّعي كونها في أبي بكر، والقسم الآخر يدّعيها للإمام عليّ عليه السّلام، فأيّ الفريقين أحق؟

الإشارات المفيدة

لعلّ أهم ما يستدل به القائلون بالنّص على أبي بكر، هو تقديمه للصلاة في مرض النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي توفي فيه، فيربطون بين تقديمه للصلاة وبين الوصيّة له بالخلافة من بعده. ويستدلون على أولويته بالخلافة أيضا بأن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أقفل جميع الأبواب المؤدية الى المسجد ما عدا باب أبي بكر. والى غير ذلك من المروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث يعتبرون في كل ذلك إشارات واضحة الى إستخلافه.

ولن نناقش هنا في مدى صحة هذه الروايات، فمع فرض التّسليم بصحة نسبتها الى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم،

نريد أن نسأل هؤلاء: كيف استفادوا إستخلاف أبي بكر من أمثال هذه الروايات والاشارات، ولم يستفيدوا إستخلاف علي بن ابي طالب عليه السّلام من أمثال حديث المؤاخاة حيث يقول صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السّلام: «يا عليّ انت منّي بمنزلة هارون من موسى» أو من قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم الغدير: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» والى غير ذلك من النصوص الصريحة في إستخلاف علي عليه السّلام؟

والسؤال الآخر هو، لماذا لم يستدل ابو بكر بنفسه على أحقيّته بالخلافة عن طريق هذه الأحاديث؟ ففي إجتماع السّقيفة الذي قرّر مصير الخلافة، كان كل طرف يحاول جرّ الأمر إلى نفسه، ويستشهد لذلك بأوهن الأدلّة، فكيف يغفل أبو بكر عن هذا الدليل؟ بل انّا نراه يقدِّم أحد صاحبيه - عُمر وأبا عُبيدة - حيث قال «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين»، فلو كان هناك نصّ عليه لما أبعَد نفسه واقترح أحد صاحبيه، ولو كانت هذه الأحاديث المتقدمة موجودة فعلاً لاستدلّ بها.

والذي نراه أن هذه الأحاديث بمجملها موضوعة، وُضعت بعد يوم السقيفة، وذلك لتصحيح بيعة أبي بكر، حيث رأى البعض أن الاستدلال على صحة بيعته بإجماع المسلمين لم يعد يجدي، إذ ظهر للجميع انّ كثرةً من الصحابة الذين

لهم اعتبارهم لم يبايعوا، ولذا لجأ هذا البعض الى وضع هذه الآحاديث للإستنجاد بها، وقد قلنا انّه حتى مع فرض قبول صحتها فهي لا تدل على الإستخلاف بشكل صحيح.

ونضيف الى كل ذلك أن أبا بكر نفسه كان ينفي أمر الإستخلاف من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث ورد عنه أنّه قبيل وفاته كان يتحسّر على أشياء وأشياء لأنه لم يسأل النبي عنها، ومن تلك الأشياء هو سؤاله عن الخليفة من بعده، من يكون؟ (١)

النّص الصّريح

وأما القائلون بالنّص على عليّ بن أبي طالب، فإنهم يستدلون بالكثير الكثير من الروايات والآيات القرآنية، التي تدلّ بشكل واضح لا إجمال فيه على النّص على خلافته. ولكن بالرغم من وضوح دلالتها فإن البعض يحاول صرفها عن مدلولها الحقيقي، وذلك بتأويلات بعيدة عن الواقع. ونحن لن نطيل هنا بذكرها ومناقشة ما أورد عليها، وإنما نكتفي بإعطاء مثال على كل ذلك.

غدير خم، مكان مشهور تاريخياً. ومرجع شهرته يعود إلى ذلك اليوم الذي إستوقف فيه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أصحابه في طريق عودته وإياهم من حجّة

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٤٧

الـوداع، «وقـام النبـيّ (صلـى اللـه عليـه وآلـه) خطيبـاً وأخـذ بيـد علـيّ بـن أبـي طالـب فقـال : ألسـت أولـى بالمؤمنيـن مـن أنفسـهم؟ قالـوا : بلـى يـا رسـول اللـه (صلـى اللـه عليـه وآلـه) . قـال : فمـن كنـت مـولاه فعلـيّ مـولاه ، اللّهـم والِ مـن والاه وعـادِ مـن عـاداه» (١)

فهـذا الحديـث المتواتـر، هـو مـن النّصـوص الصريحـة علـى خلافـة علـي عليـه السّـلام، ولكـن مـع ذلـك جـاء مـن يطعـن بـه، لا مـن حيـث سـنده، فقـد ثبـت صحّتـه عـن النبـيّ صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم لـدى الجميـع، ولكـن مـن حيـث دلالتـه، حيـث فسَّـر كلمـة «المولـى» التـي جـاءت فـي كلام النبـي، بمعنـى النّاصـر والمحـبّ. ولا نـدري كيـف يقنعـون أنفسـهم بـأن النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم قـد وقـف علـى مائـة ألـف مـن أصحابـه، وفـي حـرّ الهجيـر، ليقـول لهـم: إن عليـاً محـب وناصـر لكـم؟

وباقـي الأحاديـث الـواردة فـي إسـتخلاف علـيّ عليـه السّـلام هـي كهـذا الحديـث من الوضـوح، والنقـض الذي وُضـع عليها هـو مـن الوهـن كهـذا النّقـض، ولـذا لـن نطيـل بإسـتعراضها، خاصـة مـع وجـود الكتـب الكثيـرة التـي تناولتهـا. ولكـن نريـد أن نشـير الـى أن بعـض الصّحابـة قد فهموا من هـذه الاحاديث النـصّ علـى علـيّ عليـه السّـلام، هـذا علـى الأقـل مـا تـدل

(١) تاريخ اليعقوبي جزء٢ صفحة ١١٢

عليه الشواهد التاريخية.

فمن ذلك ما ورد عن أبي قحافة، عندما أرسل اليه ابنه «ابو بكر» كتاباً يعلمه فيه بمبايعة النّاس له بعد وفاة النبيّ، فلما قرأ الكتاب قال للرسول: ما منعكم من عليّ؟ قال: هو حَدَث السّن، وقد أكثر القتل في قريش وغيرها، وأبو بكر أسنّ منه، قال أبو قحافة: إذا كان الأمر بالسِّن فأنا أحقّ من أبي بكر، لقد ظلموا عليّاً حقه، وقد بايع له النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمَرنا ببيعته.

وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة، فقال:

لمّا بويع ابو بكر، أقبلت الجماعة التي بايعته تزفّه زفاً الى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فلمّا كان آخر النّهار إفترقوا الى منازلهم. فاجتمع قومٌ من الأنصار وقومٌ من المهاجرين، فتعاتبوا فيما بينهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا معشر الأنصار إنكم وان كنتم أولي فضلٍ ونصرٍ وسابقة، فإنه ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا عليّ ولا أبي عُبيدة. قال زيد بن أرقم: إننا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرّحمن، وإن منّا لسيّد الأنصار سعد بن عبادة، ومنّا من أمر الله ورسوله أن يقرئه السلام و أن يأخذ عنه القرآن ، ابي بن كعب، ومنّا من يجيء يوم القيامة أمام العلماء معاذ بن جبل، ومنّا

من أمضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت، وإنّا لنعلم أن ممّن سمّيت من قريش من إذا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد «عليّ بن ابي طالب» (١).

ولكن علياً عليه السّلام كان في شغل عن هذا الأمر بتجهيز النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. وهذه المحاورة بين المهاجرين والأنصار كانت من قبيل تعاتب الأحبة، وليست نزاعاً على الخلافة لأنها قد تمت وعُقدت لأبي بكر. ونحن نرى كيف انّ المهاجرين لم يستطيعوا دون أن يوردوا إسم عليّ عليه السّلام بين الأسماء التي ذكروها من المرشّحين للخلافة، وكذلك الأنصار حيث ردّوا عليهم بأن مَن عندهم يوازي في الفضل والأهلية مَن عند المهاجرين لولا شخص واحد هو عليّ بن ابي طالب. ولا نجد تبريراً لكل ما وَرد من الطرفين إلا لأن في أذهانهم إستخلاف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم له.

ومن الشواهد أيضاً ما يذكره ابن أبي الحديد: ‹‹مرّ المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر وهما جالسان على باب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حين قُبض، فقال: ما يقعدكما؟ قالا: ننتظر هذا الرجل - يعنيان عليا - يخرج فنبايعه. فيقول المغيرة: أتريدون ان تنتظروا حَبَل الحبلى من أهل

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ١٩

البيت؟ وسّعوها في قريش تتّسع» (١)

وهذه الرواية تدل بشكل واضح ايضاً على ان ابا بكر وعمر يعترفان بحق عليّ في الخلافة، وإلا فما معنى إنتظارهما على بابه ليبايعاه؟. وتدلّ ايضاً على أن الإرتكاز الذي في ذهن المُغيرة هو أن الخلافة في بني هاشم خاصّة، وعند الإمام عليه السّلام تحديداً، ولذلك يقترح توسعتها لتكون في قريش عامة، ولذا يقول عليه السّلام:

إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيش غُرِسُوا فِي هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِم، لاَ تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ (خطبة ١٤٤)

فنستفيد من كل هذه الشواهد وغيرها انّ الصحابة بأجمعهم كانوا يعرفون بوصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ، ويكفينا للتأكد من هذا الأمر، كلام الإمام عليه السّلام حيث يقول:

أَمَا وَالله لَقَدْ تَقَمَّصَها فُلانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا (خطبة ٣)

فهذا إتّهام صريح لأبي بكر بمعرفته بأحقية الإمام عليه السّلام بالخلافة، ومن كلامه أيضا في إتهام الصحابة في

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٤٣

ذلـك، مـا ورد مـن مخاطبتـه لهـم لمّـا عزمـوا علـى بيعـة عثمـان:

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّـي أَحَـقُّ بِهَـا مِـنْ غَيْـرِي، وَوَاللـهِ لَأُسْـلِمَنَّ مَـا سَـلِمَتْ أُمُـورُ الْمُسْـلِمِينَ (خطبـة ٧٣)

وهنـاك مواضـع أخـرى كثيـرة فـي نهـج البلاغـة يذكـر فيهـا الإمـام عليـه السّـلام أحقيته بالخلافـة، ويتظلّم من قومه لسـلبهم إيـاه ، فمـن ذلـك قولـه:

وَقَـال قَائِـلٌ: إِنَّـكَ يابْـنَ أَبِـي طَالِـب عَلَـى هـذَا الأَمْـرِ لَحَرِيـصٌ. فَقُلْـتُ: بَـلْ أَنْتُـمْ وَاللهِ أَحْـرَصُ وَأَبْعَـدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْـرَبُ، وَإِنَّمَـا طَلَبْـتُ حَقّـاً لِـي وَأَنْتُـمْ تَحُولُـونَ بَيْنِـي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُـونَ وَجْهِـي (١) دُونَـهُ، فَلَمَّـا قَرَّعْتُـهُ (٢) بِالْحُجَّـةِ فِي الْمَـلاءِ الْحَاضِرِيـنَ هَـبَّ كَأَنَّـهُ بُهِـتَ لاَ يَـدْرِي مَـا يُجِيبُنِـي بِـهِ (خطبـة ١٧٢)

ويحدّث عليه السّلام عن قريش فيقول:

وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي (خطبة ١٧٢)

فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي، (١) فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي،

(١) ضَرْبَ الوجه: كناية عن الرد والمنع.

(٢) قرعته بالحجة: من قرعه بالعصا ضربه بها.

وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي (كتاب ٣٦)

ومما صرح به عليه السّلام عن أحقيته بالخلافة قوله:

فلمَّا مَضى صلّى الله عليه وآله تنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي (٢) وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلّى الله عليه وآله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلاَ أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ (كتاب ٦٢)

وبطبيعة الحال، فإن الإمام عليه السّلام لم يكن ليدّعي أحقيّته بالخلافة، ويتظلّم من قومه لأنهم سلبوه حقه، لولا وجود النص عليه من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والوصيةّ له. وهو يخبرنا عن هذه الوصية في معرض حديثه عن أهل البيت حيث يقول:

لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلايَةِ، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ (خطبة ٢)

(١) الجَوازي: جمع جَازِية وهي النفس التي تجزي، كناية عن المكافأة، وقوله: جزأتهم الجوازي، دعاء عليهم بالجزاء على أعمالهم.

(٢) الرُوع بضم الراء: القلب، أو موضع الرَوْع منه بفتح الراء أي الفَزَع.

والسؤال الذي يُطرح هنا: إذا كانت الخلافة من حق الإمام عليّ عليه السّلام بوصية النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم له، وكان الصحابة جميعاً يعرفون ذلك، فلماذا أراد الآخرون أبعاده عليه السّلام عن الخلافة، وأبعادها عنه؟ جواب ذلك هو موضوع بحثنا في الفصل الثّالث.

الفصل الثّالث:

المؤامرة الكبرى

الأحداث الخطيرة

عندما تُذكر الخلافة، يُتبادر إلى الذّهن فوراً ذلك اليوم الصّيفي من السنة الحادية عشرة للهجرة. في ذلك اليوم، مكانان من مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كانا يشهدان أحداثاً خطيرة كان لها أثرها الكبير على الأمّة الاسلامية جمعاء.

المكان الأوّل هو منزل الّرسول الكريم حيث كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد نفض يديه من هذه الحياة الدنيا، مختتماً سنيناً طويلة من الجّهاد والعناء، في سبيل رسالة الإسلام التي جاء بها. إختتم هذه السّنين كأيّ حيّ من الأحياء، فأسلم الرّوح الى بارئها. وكان بجانبه في هذه الأثناء إبن عمه عليّ بن أبي طالب يتولّى تجهيزه لمواراته في مثواه الأخير، لا يهمّه شيء سوى إنجاز هذا الأمر كما يجب.

ويأتي العباس، عمّ الإمام عليه السّلام، ليقاطعه عن مهمته ويقول له: أمدد يدك ابايعك فيقول الناس: عمّ رسول الله

بايـع إبـن عم الرّسـول، فـلا يختلف عليـك إثنان. فيجيبـه الإمام عليـه السّـلام وهـو لا يرفـع بصـره عـن الجثمـان الكريـم: لنـا برسـول اللـه يـا عـم شـغل. ومـا إن خـرج العبـاس حتـى دخـل ابـو سـفيان بـن حـرب عارضـاً علـى الإمـام عليـه السّـلام نفـس عـرض عمـه، فيقـول لـه: يـا ابـا الحسـن، هـذا محمـد قـد مضـى الـى ربـه، وهـذا تراثـه لـم يخـرج عنكـم، فإبسـط يـدك أبايعـك، فإنـك لهـا أهـل. فيجيبـه الإمـام عليـه السّـلام: يـا ابـا حنظلـة، هـذا أمـر ليـس يخشـى مغبـة الريـث والتمهـل.

وهـذا الـرد مـن الإمـام عليـه السّـلام يشـعّ بالثّقـة أنـه لا منـازع لـه فـي حقّـه، لـذا نـراه لا يسـتعجل الأمـور. ولكـن أبـا سـفيان الـذي خـرج لتـوّه، والعبـاّس الـذي سـبقه، يلتقيـان فـي الخـارج فيتباحثـان الأمـر، ويعـودان معـاً، عسـى أن يسـتطيعا إقنـاع الإمـام عليـه السّـلام بقبـول طلبهمـا. ولكن جـواب الإمـام عليه السّـلام واحـد لا يتغيـر، «انـي أحـب أن أصحـر بهـا، وأكـره ان أبايـع مـن وراء رتـاج» (١)

لقـد رفـض الإمـام عليـه السّـلام إقتنـاص البيعـة مـن وراء أظهـر المسـلمين، فيأبـى إلا أن يبايـع علـى رؤوس الأشـهاد، مـع وثوقـه بـأن هـذا الامـر لا يفلـت مـن يديـه.

ولكن على ماذا يدل هذا الإصرار من ابي سفيان والعباس

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٤٨

على استعجال المبايعة؟ هل كانا يحدسان بوجود مؤامرة تُحاك خيوطها في الظلام لإنتزاع الخلافة من صاحبها الشرعي؟ أم كان ذلك مجرد استعجال للأمور؟ لو اتّهمنا ابا سفيان بأنه يريد تسجيل يد بيضاء لدى الإمام عليه السّلام بطرحه ولاءه له، فبماذا نستطيع تفسير موقف العبّاس؟ ولم تمض ساعات قليلة حتى جاء الجواب، فبينما كان عليه السّلام ما يزال مشغولاً بتجهيز النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ به يسمع تكبير القوم في المسجد وهم يبايعون أبا بكر، بعد أن تم له الأمر أثر إجتماع السقيفة.

والسقيفة هي المكان الآخر الذي قلنا في أول حديثنا في هذا الفصل، أنه كان يشهد احداثاً خطيرة ذات أثر، فماذا كان يحدث هناك؟

تآمر الأنصار

في سقيفة لِبني ساعدة إجتمع الأنصار يحيكون مؤامرتهم لإقتناص الخلافة من أيدي أصحابها الشرعيين. والأنصار كانوا على علم بوصية النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السّلام فهم الذين نصروا النبيّ وآووه وعايشوه في فترات حياته، فلا يُعقل عدم اطّلاعهم على هذا النص، وقد سبق ونقلنا تصريح زيد بن أرقم بأولوية عليّ عليه السّلام.

وهنا يطرح السؤال السابق نفسه بشدة: لماذا يخالف الأنصار رغبة النبي بعد مماته، بالرّغم من جهادهم الصّادق بين يديه طيلة حياته؟

الذي نعتقده - في مقام تبرير موقف الانصار - هو أنهم كانو يحدسون، أو يعلمون بوجود مؤامرة تحاك خيوطها من أجل إبعاد الخلافة عن عليّ عليه السّلام، صاحب الحق الشرعي. ويشهد لنا على هذا التبرير أن مدار حديثهم طوال الجلسة كان عن كيفية استدلالهم وتمتين حجّتهم في مواجهة المهاجرين عندما ينازعونهم أمر الخلافة، ونظرة صغيرة على جدالهم ذلك اليوم توضح هذا الأمر.

قال ابن ابي الحديد في شرحه على النهج، عند الحديث عن إجتماع الأنصار: ثم أنهم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: إن جاءت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون، وأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الأوّلون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلامَ تنازعوننا هذا الأمر من بعده؟ فقالت طائفة منهم إذا نقول: منا امير ومنكم أمير...الى نهاية الحديث (١)

فنلاحظ بوضوح أنهم يهيّئون أنفسهم لجدال وإحتجاج مع المهاجرين، ولم يأتوا على سيرة بني هاشم وعليّ عليه

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٦

السّـلام أبـداً، ومـا ذلـك الا لأنهـم كانـوا يستشـمّون رائحـة الطّمـع مـن المهاجريـن للإسـتيلاء علـى الخلافـة، تمامـاً كمـا كان العبّـاس وابـو سـفيان متأكـدان من ذلك حين جـاءا يصرّان علـى الإمـام عليـه السّـلام ليقبـل مبايعتهمـا.

وأمـا كيـف حـدَسَ كل هـؤلاء بوجـود مؤامـرة، فالـذي نظنـه أنّ حدسـهم هـذا كان وليـد ملاحظـات عديـدة حدثـت فـي المـدّة الأخيـرة لحيـاة النبـيّ صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم، بـل فـي أيامـه الأخيـرة، إسـتطاعوا مـن خـلال تجميعهـا وتنسـيقها مـع بعضهـا أن يسـتنتجوا وجـود هـذه المؤامـرة. فمـن تلـك الملاحظـات التـي يمكـن أن يكونـوا دوّنوهـا هـي عـدم خـروج أبـي بكـر وعمـر فـي بعثـة أسـامة التـي أمـر النبـيّ جميـع النـاس بالإلتحـاق بهـا ولكنهمـا لـم يفعـلا، ومـا ذلـك إلا ليبقيـا قريبيـن مـن الأحـداث المسـتجدة.

وملاحظـة أخـرى هـي عندمـا أمـر النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم بكَتـف ودواة ليكتـب للنّـاس كتابـاً لـن يضلّـوا بعـده أبـدا، حيـث رأوا عُمـر ويوافقـه آخـرون يمتنعـون عـن إجابـة طلـب النبـيّ لعلمهـم أنـه سـيوصي خطيـاً بالخلافـة لعلـيّ عليـه السّـلام.

والملاحظـة الثالثـة هـي ثـورة عمـر علـى أهـل المدينـة عندمـا أخـذوا يتناقلـون خبـر وفـاة النبـيّ صلّـى اللـه عليه وآله وسـلّم،

وأخذ يهدّد بسيفه كل من يقول بأن محمداً قد مات، ولم تهدأ ثائرته إلا عندما وصل أبو بكر الى المدينة - وقد كان خارجها - حينئذ اطمئن عُمر إلى إن ما رتّبه مع رفيقه سيكون على ما يريدان، فهدأت ثائرته.

كل هذه الملاحظات، وربما يكون هناك كثير غيرها، كانت كافية لتثير شكوك الأنصار حول وجود المؤامرة التي نتحدث عنها، ولذلك أرادوا بإجتماعهم هذا إستعجال الامور، وجذب الامر نحوهم. فالأنصار في الحقيقة لم يكونوا قد هيّئوا أنفسهم لمثل هذا الموقف، إذ لم يكن عندهم طمع سابق بالخلافة، بل الموقف الحالي فرض نفسه عليهم فرضاً، لذلك اجتمعوا للتّدارس في أمرهم وموقفهم المقبل، وعندما أيقنوا أن المهاجرين لن يسمحوا بوصول الخلافة الى عليّ كان عليهم إتخاذ موقف سريع ليمنعوا المهاجرين من الوصول اليها، ودافعهم هو الاتي:

الأنصار، سُمّوا بهذا الإسم لمناصرتهم النبيّ يوم لم يكن له نصير، فحاربوا بين يديه وقتلوا الكثيرين من أعدائه من أهل مكة، ولذلك كانوا يخشون من تولّي المهاجرين الخلافة خوفاً من قيامهم بأخذ ثأرهم القديم منهم. وزاد في تخوّفهم هذا أنهم طالما سمعوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول لهم: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدي أَثَرَةً فاصْبِرُوا حَتَّى تلقَوْنِي علَى الْحوْضِ» (١)

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، (١٣٨١/٣)، رقم: (٣٥٨١)، ومسلم في كتاب الإمارة (١٤٧٤/٣)، رقم: (١٨٤٥).

وقد ظهر تخوُّف الانصار هذا في كلام الحبـّاب بن المنذر حيث قال في مناظرته مع المهاجرين يوم السقيفة:«ولكنّا نخاف أن يليها بعدكم من قتلنا أبناءهم وإخوانهم» فاذا كان هذا الجيل من المهاجرين يمنعه إيمانه من الأخذ بثأره فمن يضمن لهم الأجيال القادمة ألّا تفعل ذلك؟.

وأبو بكر قد أدرك تخوّفهم، لذلك أخذ يطمئنهم فقال:«ليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء». فأفهَمهم بذلك أنّ تخوفهم في غير محلّه، فان الإمارة سيتولاها المهاجرون الأوّلون، وهؤلاء ليس بينهم وبين الأنصار أي دماء يخشى ثورانها، ومن قبيل الضمانة عيّنهم في منصب الوزارة، ويعني هذا إطلاعهم على جميع الأمور قبل إبرامها، وهذا ما يشعرهم بالاطمئنان، على ما يُفترض.

وحيث شعر الأنصار أن الامر قد خرج من أيديهم عادوا للتمسّك بآخر أمل لديهم لإبعاد المهاجرين عن الإستيلاء على الخلافة، فطرحوا إسم عليّ عليه السّلام كأحق الناس بهذا الامر، فقالوا:«لا نبايع الا عليا». فمع وجود عليّ في منصب الخلافة فانهم لا يخشون شيئاً مما كانوا يتحرزون

منـه، حيـث أنـهـم يعلمـون انّ العـدل هـو الحاكـم عنـد علـيّ فلا يجـور عليهـم بحـال مـن الأحـوال، وهـو علـى أيـة حـال ليـس موتـوراً مـن أحـد، بـل هـو الـذي وتـر المهاجريـن ولوّعهـم، ولكـن الأوان كان قـد فـات.

إحتجاج الإمام عليه السّلام

باغَـت المهاجـرونَ الأنصـارَ بدخولهـم عليهـم فـي إجتماعهـم السـرّي تحـت السـقيفة، وأفسـدوا عليهـم أمرهـم، إذ سـرعان مـا انقلبـت الأمـور رأسـاً علـى عَقـب وتمّـت المبايعـة لأبـى بكـر. ونحـن لـن ندخـل بتفصيـل احتجـاج كلا الطرفيـن علـى الآخـر، بـل نكتفـي بذكـر مـا جـاء علـى لسـان الإمـام عليـه السّـلام فـي نهـج البلاغـة، مـن احتجـاج علـى الطرفيـن معـاً، وإبطـال مـا تمسـكوا بـه، فمـن ذلـك:

قالـوا: لمّـا انتهـت إلـى أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام أنبـاء السـقيفة (١) بعـد وفـاة رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وآلـه، قَـال عليـه السـلام: مـا قالـت الانصـار؟ قالـوا: قالـت منـا أميـر ومنكـم أميـر. قَـال عليه السـلام: فَهَـلاَّ احْتَجَجْتُـمْ عَلَيْهِمْ بِـأَنَّ رَسُـولَ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه وَصَّـى بِـأَنْ يُحْسَـنَ

(١) سقيفة بني ساعدة: اجتمع فيها بعض الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاختيار خليفة له.

إِلَـى مُحْسِـنِهِمْ، وَيُتَجَـاوَزَ عَـنْ مُسِـيئِهِمْ؟ قالـوا: ومـا فـي هـذا مـن الحجّـة عليهـم؟ فقَـال عليـه السـلام: لَـوْ كَانَـتِ الامـارة فِيهِـمْ لَـمْ تَكُـنِ الْوَصِيَّـةُ بِهِـمْ. ثـم قـال: فَمَـاذَا قَالَـتْ قُرَيْـشٌ؟ قالـوا: احتجـت بأَنهـا شـجرة الرسـول صلـى الله عليـه وآله. فقَـال عليـه السـلام: احْتَجُّـوا بِالشَّـجَرَةِ، وَأَضَاعُـوا الثَّمَـرَةَ. (خطبة ٦٦)

ويعنـي بالثمـرة أهـل البيـت كمـا هـو واضـح. وفـي مـكان آخر يقـول عليه السّـلام:

وَاعَجَبَـاهُ! أَتَكُـونُ الْخِلاَفَـةَ بِالصَّحَابَـةِ وَلا َتَكُـونُ بِالصَّحَابـةِ وَالْقَرَابَـةِ؟ وروي لـه شـعر فـي هـذا المعنـى،

فَـإِنْ كُنْـتَ بِالشُّـورَى مَلَكْـتَ أُمُورَهُـمْ * فَكَيْـفَ بِهـذَا وَالْمُشِـيرُونَ غُيَّـبُ

وَإِنْ كنْـتَ بِالْقُرْبَـى حَجَجْـتَ خَصِيمَهُمْ * فَغَيْـرُكَ أَوْلَـى بِالنَّبِيّ وَأَقْرَبُ.(حكمة١٨٠)

وبذلـك يكـون عليـه السّـلام قـد سـدّ عليهم جميـع المنافـذ، فإنـهم إن كانـوا احتجـوا بأنـهم شـجرة رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم فليـس هنـاك مـن هـو أقـرب الـى النبـيّ مـن بنـي هاشـم وعلـيّ عليـه السّـلام. وإن كانـوا توصّلـوا الـى الخلافـة بالشـورى، فـإن أول مـن يجـب مشـاورته وأخذ رأيه هـم قرابة

النبيّ وقد كانوا جميعا ملازمين داره في تلك الاثناء. وفي كتاب للإمام إلى معاوية في مقام الإحتجاج على حقّه في جميع الأحوال، كتب عليه السّلام:

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللّه صلى اللّه عليه وآله فَلَجُوا عَلَيْهِمْ (١) فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.(كتاب ٢٨)

من المعلوم أن حجة المهاجرين كانت أنهم شجرة رسول الله، وبها تمكنوا من إسكات الأنصار وقطع محاججتهم بأحقيّتهم بالخلافة، فلو كانت حجة المهاجرين صحيحة فان الإمام عليه السّلام يتمسّك بها لإثبات أحقيّته حيث أنه كالثمرة، بمعنى أنه أقرب، وإن كانت حجتهم خاطئة فإن احتجاج الأنصار قائم على حاله.

وحيث انتهى عليه السّلام من إبطال إحتجاج القوم، أخذ في الاحتجاج لنفسه، ليظهر أنه صاحب الحق دون منازع، وجاءهم من طريقين:

الأوّل: سلك فيه نفس الطريق الذي سلكوه في احتجاجهم، وهو دعوى القرابة، صحيح انه يستنكر عليهم أن تكون

(١) فَلَجوا عليهم أي: ظفروا بهم

الخلافة بالقرابة، ولكنه يُلزم الخصم بما ألزم به نفسه فيقول عليه السّلام:

أمَّا الاسْتِبْدادُ عَلَيْنَا بِهذَا الْمَقامِ وَنَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَالاشَدُّونَ بِالرَّسُولِ نَوْطاً (١) فَإنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً (٢) شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفوسُ آخَرِينَ.(خطبة ١٦٢)

وفي كتابه المتقدم الى معاوية، كتب عليه السّلام:

فَنَحْنُ مَرَّةً أوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ.(كتاب ٢٨)

وَقَال قَائِلٌ: إِنَّكَ يابْنَ أبِي طَالِب عَلَى هذَا الأَمْرِ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ أحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ. (خطبة ١٧٢)

الطريق الثّاني الذي سلكه الإمام عليه السّلام لإثبات حقه، كان بإظهار لياقته وجدارته بهذا المنصب، فهو كان لا يرى أحدا أجدر منه بتوليه فنراه يصف نفسه وأهليته لتولّيه بقوله:

(١) النَوْط بالفتح: التعلّق والالتصاق.
(٢) الاثَرة: الاختصاص بالشيء دون مستحقه.

أَمَـا وَاللـه لَقَـدْ تَقَمَّصَهـا (١) فُـلانٌ، وَإِنَّـهُ لَيَعْلَـمُ أَنَّ مَحَلِّـيَ مِنهَـا مَحَـلُّ القُطْـبِ مِـنَ الرَّحَـا، يَنْحَـدِرُ عَنِّـي السَّـيْلُ، وَلا يَرْقَـى إِلَـيَّ الطَّيْرُ.(خطبـة ٣)

فهـو عليـه السّـلام يشـير الـى علـوّ مكانتـه وسـموّ منزلتـه وإن كان عنـد النـاس مـن فضـل، فإنمـا هـو ممـا تدفّق مـن حوضه، فأصابـه النـاسّ، ومـن كانـت هـذه منزلتـه وهـذا مقامـه كيـف يُعقـل أن يكـون مأمـورا ويكـون مـن هـو أدون منـه آمـرا؟ مـن المنطقـي ان يكـون الوالـي خيـرا مـن رعيتـه حتـى يحظـى بطاعتهـم وإحترامهـم.

ولا شـك عندنـا فـي أفضليـة علـيّ عليـه السّـلام علـى جميـع صحابـة النبـي، وحتـى بعـض المصححيـن لخلافـة مـن سـبقه يعترفـون بأفضليتـه، ولكنهـم يسـتدركون قائليـن:«لا بـأس بأن يتولـى المفضـول علـى الفاضـل». أي حتـى لـو كان علـيّ هـو الأفضـل، فـلا مانـع أن يتولـى عليـه مـن هـو دونـه فـي ذلـك، والإمـام عليـه السّـلام يرفـض هـذا المنطق مـن أساسـه فيقول:

أَيُّهَـا النَّـاسُ، إِنَّ أَحَـقَّ النَّـاسِ بِهـذَا الأَمْـرِ أَقْوَاهُـمْ عَلَيْـهِ، وَأَعْلَمُهُـمْ بِأَمْـرِ اللـهِ فِيـهِ، فَـإِنْ شَـغَبَ (٢) شَـاغِبٌ

(١) تَقَمّصَها: لبسها كالقميص.

(٢) الشغب: تهييج الفساد.

اسْتُعْتِبَ فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ.(خطبة ١٧٣)

موقف الإمام عليه السّلام

يأبى بعض الباحثين إلا أن يصوّر لنا الإمام عليه السّلام وكأنه ذلك المُسالم الوديع، الذي أُخذت منه الخلافة ولم يحاول أن يحرّك ساكناً لإظهار أحقيّته بها، بل بايع كما فعل سائر الناس. بينما البعض الآخر - على النّقيض من هؤلاء تماماً - يصورونه وكأنه كان ثورة مستمرة على هؤلاء الذين اغتصبوا حقّه، وأنه كان يتحيّن الفرص للإنقضاض عليهم، ولذا كان لا بدّ من الوقوف عند هذه النقطة للتعرّف على حقيقة موقف الإمام عليه السّلام، كما هو دأبنا في هذا الكتاب نحاول إستيضاح موقفه من خلال كلامه في نهج البلاغة.

ففي كتاب لمعاوية رداً على كتاب له يعبّر الإمام عليه السّلام على ما كان منه، فكتب:

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ (١) حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ

(١) الجمل المخشوش: هو الذي جُعِل في أنفه الخِشاش بكسر الخاء وهو ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب لينقاد.

تَفْضَـحَ فَافْتَضَحْـتَ! وَمَـا عَلَـى الْمُسْـلِمِ مِـنْ غَضَاضَـة (١) فِـي أَنْ يَكُـونَ مَظْلُومـاً مَـا لَـمْ يَكُـنْ شَـاكّاً فِـي دِينِهِ.(كتـاب ٢٨)

فالإمـام عليـه السّـلام يعتـرف بأنـه كان يقـاد حتـى يبايـع، ولا ينكـر ذلـك علـى معاويـة، وهـذا يعنـي رفضـه للمبايعـة وإسـتنكاره لهـا، فالإمـام عليـه السّـلام لـم يبايـع أبـدا الا بعـد وفـاة فاطمـة، أي بعـد أشـهرٍ مـن تولـي أبـي بكـرٍ لمنصـب الخلافـة.

ويـروي فـي كتـاب الإمامـة والسياسـة، رَفـض الإمـام عليـه السّـلام للمبايعـة، فيقـول:

انّ عمـر طلـب مـن أبـي بكـر أن يبعـث إلـى علـيّ ليبايـع، فأرسـل اليـه قنفـذاً فلـم يحضـر، فطلـب عمـر أن يرسـل اليـه ثانيـاً فأرسـل اليـه قنفـذاً أيضـا فلـم يحضـر، فمضـى اليـه عُمر بنفسـه ومعـه جماعـة، فتكلمـت فاطمـة، فـرَقّ لهـا قـوم منهـم فرجعـوا، وبقـي عمـر ومعـه قـوم فأخرجـوا عليـاً وذهبـوا بـه الـى أبـي بكـر، وتهـدّدوه بالقتـل إن لـم يبايـع، فلـم يُكرهـه أبـو بكـر علـى البيعـة لمـكان فاطمـة، فلمـا توفيـت فاطمـة بايـع مكرهـاً.

وطوال الفترة التي استمّر فيها الإمام عليه السّلام في

(١) الغَضاضة: النقص.

رفضه للبيعة وكرهه لها، لم يكن يحاول قط تأليب الناس على الخليفة أو نقض بيعته، فمن حق الإمام عليه السّلام أن يكون كارهاً لأمر أولئك الذين غصبوه حقه، وليس يعتذر الى الناس عن ذلك، ولكن أن يكون قد بغى عليهم وحاول تأليب الناس عليهم، فهذا أمر لا يفعله ولا يقبل من أحد ان يقوم به، لان معناه الفتنة التي يرفضها الإمام عليه السّلام ويحاربها.

نعم كل ما فعله الإمام عليه السّلام انه خرج ليلًا ومعه فاطمة والحسن والحسين، فأخذ يطرق أبواب الأصحاب داعياً الى نفسه، مذكّراً بعهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

والذي نظنه أن الليل الذي خرج فيه عليه السّلام كان مساء يوم السقيفة حيث أن كثرةً من المهاجرين - كبني زهرة وبني أمية - كانت غير راضية بعد عن المبايعة، فمن الطبيعي أن يحاول الإمام عليه السّلام كسب تأييد هذه الفئة، ولا نظن أنه قد خرج في غير هذه الليلة، لانه في صباح اليوم التالي كانت البيعة لأبي بكر قد تمّت، ولم يعد بالإمكان نقضها، فليس من المعقول أبدا أن يحاول الإمام عليه السّلام مثل هذا الأمر.

وفيما عدا ذلك لم يذكر أحد أي محاولة للامام تهدف

الـى تأليـب النـاس لصالحـه، بـل لـم يـدَّع أحـد أن الإمـام عليـه السّـلام إنتقـد الخلفـاء بـأي شـكل مـن أشـكال الانتقـاد طيلـة فتـرة حياتهـم. نعـم بعـد أن أصبـح هـؤلاء فـي ذمـة اللـه وآلـت اليـه الخلافـة، كانـت لـه شقشـقة هـدرت ثـم قـرّت، إنتقـد فيهـا تولـي الخلفـاء للمنصـب الـذي كان يـراه مـن حقـه، وكان ذلـك فـي معـرض الترويـح عـن النفـس بعـد أن لـم تعـد تسـتطيع الاحتمـال. فالدّاعـي لذلـك لـم يكـن بـأي حـال مـن الأحـوال مـن بـاب المكيـدة بالخلفـاء، وسـيأتي الـكلام فـي هـذا الأمـر.

وقـد نسـتطيع أن نـرى عكس مـا كان يراه أولئـك الذين يدَّعون علـى الإمـام عليـه السّـلام انـه كان يحـاول تأليـب النـاس علـى الخليفـة، فهـذا أبـو سـفيان يأتـي الإمـام عليـه السّـلام المـرة تلو الأخـرى محـاولا تحريضـه علـى جهـاد القـوم ومناهضتهـم واعـداً إيـاه بالمسـاندة، ولكـن الإمـام عليـه السّـلام كان يـردّه المـرة تلـو الأخـرى، وأخيـرا قـال له:«أمسـك عليـك، فانّـا رأينـا ابـا بكـر لهـا اهـلا». وبالطبـع فالإمـام عليـه السّـلام يعلـم يقينـاً أن المؤهـل للخلافـة هـو الـذي عيّنـه النبـيّ بالنّـص الصّريـح دون سـواه، فالأهليـة التـي أعطاهـا لأبـي بكـر كانت بمنظـار أبـي سـفيان حيـث كان ينظـر للخلافـة علـى أنهـا ملـك دنيـوي، وسـلطان عظيـم، وهـو لـم يعتقـد بهـا أبـداً كإمامـة وخلافـة دينيـة.

ويـروى أن أحـد أبنـاء ابـي لهـب أنشـد شـعرا يذكـر فيـه أحقية

الإمـام عليـه السّـلام بالخلافـة، وعندمـا سـمع الإمـام عليـه السّـلام بذلـك أرسـل اليـه ونهـاه عـن العـود الـى ذلـك، قائـلا لـه: «سـلامة الديـن أحـب الينـا مـن غيـره».

والحقيقـة أن وضـع الإمـام عليـه السّـلام كان وضعـا حرجـا يصعـب إتخـاذ القـرار فيـه، فالأنظـار كانـت كلهـا متجهـة اليـه، فسـكوته عـن حقـّه كان يعتبـره البعـض جُبنـاً وخوفـاً، وإحتجاجـه بأقـلّ كلمـة كان البعـض الآخـر يعتبـره طمعـاً فـي الملـك وحرصـاً عليـه دون الأخـذ بعيـن الإعتبـار مصالـح المسـلمين ككل، وقـد حدثنـا الإمـام عليـه السّـلام عـن صعوبـة وضعـه بقولـه:

فَـإِنْ أَقُـلْ يَقُولُـوا حَـرَصَ عَلَـى الـمُلْكِ، وَإِنْ أَسْـكُتْ يَقُولُـوا جَـزِعَ مِـنَ المَوْتِ.(خطبـة ٥)

والـى هنـا نكـون قـد إنتهينـا مـن اسـتعراض كلمـات الإمـام حـول أحـداث السـقيفة، ومـا يتعلـق بذلـك.

الفصل الرّابع:

نقد الخلفاء

لا نجد للإمام في نهج البلاغة أي كلام له ينتقد فيه الخلفاء، سوى الخطبة الشقشقية المعروفة، نعم نستثني من ذلك الخليفة الثّالث عثمان فإن الإمام عليه السّلام قد انتقده في أكثر من موضع، وعلى أي حال لم يكن عثمان فوق النّقد، وقد أكثر الصحابة فيه الطعن، ولعل علياً كان أقلهم في ذلك. ونأتي الآن لذكر موارد النقد التي نجدها في النهج.

النّقد على أبي بكر

روى الطبري والبلاذري وغيرهم، انّ ابا بكر كان يردّد في بعض المناسبات قوله: «أقيلوني فلست بخيّركم» وبعضهم يزيد عليها «وعليّ فيكم». والإمام عليه السّلام يقف عند مقولة أبي بكر هذه ليقول:

فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها (١) في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لاخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا (٢) ضَرْعَيْهَا.(خطبة ٣)

(١) يَسْتَقِيلها: يطلب إعفاءه منها.

(٢) تشطرا ضرعيها: اقتسماه فأخذ كلّ منهما شطراً، والضرع للناقة كالثدي للمرأة.

وأي شـيء أعجـب مـن هـذا؟ فـاذا كان أبو بكر يعتـرف بوجود مـن هـو أحـقّ منـه بالخلافـة فكيف يكـون لـه الحـقّ أن يُوصـي بهـا مـن بعـده؟ ولكـن العجـب يـزول عندمـا نعـرف أنـه انمـا يفعـل ذلـك، ردا لجميـل عُمـر، ولـذا يقـول الإمـام عليه السّـلام «لشـدّ مـا تشـطّرا ضرعَيهـا» فهنـاك إتفـاق بيـن الإثنيـن أن يسـاند أحدهمـا الاخـر وتكـون الخلافـة لأحدهمـا تلـو الآخـر، والإمـام عليـه السّـلام كان يعلـم منـذ البدايـة انّ الأمـر سـيؤول إلـى عُمـر مـن بعـد صاحبـه، فليسـت مناصرتـه لـه دون ثمـن. يقـول المؤرخـون: «كان عمـر أوّل مـن بايـع ابـا بكـر فحفظها لـه». بـل أن خلافـة أبـي بكـر لـم تكـن لتقـوم لهـا قائمـة لـولا عُمـر، فليـس مـن العجـب بعـد هـذا أن يوصـي لـه مـن بعـده.

وذكـر إبـن أبـي الحديـد عـن عـدة مصـادر، انّ عمـر خَطـب النـاس ذات يـوم فقـال: أيهـا النـاس انّ بيعـة أبـي بكـر كانـت فلتـة وقـى اللـه شـرها، فمـن عـاد الـى مثلهـا فاقتلـوه.

وهـذه العبـارة طعـن صريـح فـي خلافـة أبـي بكر، علـى الأقل هـذا مـا فهمـه منهـا القدمـاء. يذكـر ابـن ابـي الحديـد: كان الشـعبي يحـدِّث النـاس ويقـول: كان فـي صـدر عمـر ضـبّ علـى أبـي بكـر، ولمـا أنكـر عليـه بعـض مـن سـمع هـذا منـه، قـال لـه الشـعبي: كيـف تصنـع بالفلتـة التـي وقـى اللـه شـرها؟ أيقـول عـدوٌّ فـي عـدوِه أكثـر مـن ذلـك؟

والإمـام عليـه السّـلام فـي سـياق حديثـه عـن بيعتـه يتعـرض لكلمـة عُمـر هـذه فيقـول:

لَـمْ تَكُـنْ بَيْعَتُكُـمْ إِيَّايَ فَلْتَـةً (١) وَلَيْـسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُـمْ وَاحِداً. (خطبة ٦)

النّقد على عُمر

وقبـل ذكـر نقـد الإمـام عليـه السّـلام علـى عُمـر، نذكـر ثنـاءَه عليـه، فقـد قـال عليـه السّـلام:

للـه بـلاء فُـلاَن، فَلَقَـدْ قَـوَّمَ (٢) الأَوَدَ، وَدَاوَى الْعَمَـدَ (٣) وَأَقَـامَ السُّـنَّةَ، وَخَلَّـفَ الْفِتْنَـةَ (٤) ، ذَهَـبَ نَقِـيَّ الثَّـوْبِ، قَلِيـلَ الْعَيْـبِ، أَصَـابَ خَيْرَهَـا، وَسَـبَقَ شَـرَّهَا، أَدَّى إِلَـى اللـهِ طَاعَتَـهُ، وَاتَّقَـاهُ بِحَقِّـهِ، رَحَـلَ وَتَرَكَهُـمْ فِـي طُـرُق مَتَشَـعِّبَة لاَ يَهْتَـدِي بِهَـا الضَّـالُّ، وَلاَ يَسْـتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي. (خطبـة ٢٢٧)

ونأتـي الآن الـى مـوارد الإنتقـاد عليـه. قـال إبـن ابـي حديـد فـي سـياق حديثـه عـن عُمـر: كان أكابـر الصحابـة يتحامـون ويتفـادون مـن لقائـه. وقيـل لابـن العبـاس لمـا أظهـر قولـه فـي

(١) الفَلْتة: الامر يقع عن غير رويّة ولا تدبّر.

(٢) قَوّمَ الاوَدَ: عَدّلَ الاعوجاج.

(٣) العَمَد بالتحريك: العلة

(٤) خَلّفَ الفتنة: تركها خلفاً، لاهو أدركها ولا هي أدركته.

العَول بعد موت عمر - ولم يكن يظهره قبله -: هلا قلت هذا وعُمر حي؟ قال: هبته، وكان أمرءا مهابا. وروى كثير من الناس أن ابا بكر لما نزل به، دعى عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عُمر. فقال: إنه افضل من رأيت، إلا أن فيه غلظة.

نستفيد من كل ما تقدم ومن غيره مما لم ننقله، انّ عمر كان فظاً غليظاً، ولكن مع ذلك نرى أبا بكر يستخلفه على رقاب المسلمين، والإمام عليه السّلام ينتقده على ذلك فيقول:

فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَة خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا (١) وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا وَالاْعْتَذَارُ مِنْهَا.(خطبة ٣)

وهذا النقد في الحقيقة هو على أبي بكر وعُمر معا، فالأول يُسجَّل عليه أنه ما كان يجب أن يولّي شخصا كهذا على المسلمين، والثّاني يُنتقد عليه انه كان يجب أن يكون رقيقاً لطيفاً، كما يقتضي منصب الخلافة.

يشير عليه السّلام الى الأخطاء الكثيرة التي كان يرتكبها عُمر، ثم سرعان ما يعترف بها ويعتذر عنها، وقد تواتر عن عمر قوله:«كل الناس أفقه من عُمر»، وفي مناسبة خاصة زاد عليها قوله «حتى ربّات الحجال». كان ذلك

(١) كَلْمُها: جرحها، كأنه يقول: خشونتها تجرح جرحاً غليظاً.

عندمـا خطـب النـاس فـي أحـد الايـام وقـال: لا يبلغنـي انّ امـرأة تجـاوز صداقهـا صـداق نسـاء النبـيّ الا إرتجعـت ذلـك منهـا. فقالـت لـه امـرأة: مـا جعـل اللـه لـك ذلـك، انـه تعالـى يقـول:«وَإِنْ أَرَدتُّـمُ اسْـتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّـكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُـمْ إِحْدَاهُـنَّ قِنطَـارًا فَـلَا تَأْخُـذُوا مِنْـهُ شَـيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَـهُ بُهْتَانًـا وَإِثْمًـا مُّبِينًـا» (١) . فقـال: كل النـاس أفقـه مـن عُمـر حتـى ربـّت الحجـال، ألا تعجبـون مـن إمـام أخطـأ وامـرأة أصابـت، فاضَلـت أمامكم ففاضلتـه.

ولعـلّ أهـم إنتقـاد يُوجّـه لعُمـر، هـو فـي إختراعـه لقصـة الشـورى. ذكـر إبـن أبـي الحديـد، أن عمـر لمـا طعنـه أبـو لؤلـؤة وعلـم انـه ميّـت لا محالـة قـال: ان رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم مـات وهـو راضٍ عـن هـذه السـتّة مـن قريـش: علـيّ وعثمـان وطلحة والزبير وسـعد وعبـد الرحمن، ورأيـت ان أجعلهـا شـورى بينهـم ليختـاروا لأنفسـهم، ثـم قـال ادعوهـم لـي. فدعوهـم، فدخلـوا عليـه وهـو ملقـى على فراشـه يجـود بنفسـه، فنظـر اليهـم وقـال: أكلكـم يطمـع فـي الخلافـة بعـدي؟ فوجمـوا، فقـال لهـم ثانيـة ذلـك فأجابـه الزبيـر قائـلا: مـا الـذي يبعدنـا منهـا وليتهـا انـت فقمـت بهـا ولسـنا دونـك في قريـش ولا فـي السـابقة والقرابـة، فقـال عمـر: أفـلا أخبركـم عـن أنفسـكم؟ فقالـوا: فإنّـا لـو اسـتعفيناك لـم تعفنـا.

(١) سورة النساء آية ٢٠

حينـذاك خاطبهـم بقولـه: أمـا انـت يا زبيـر فوقعة لقـس، مؤمن الرضـا، كافـر الغضـب، يومـاً إنسـان ويومـاً شـيطان، لعلهـا لـو أفضـت اليـك ظلـت قومـك تلاطـم البطحـاء علـى مـدٍ مـن شـعير، أفرأيـت إن إفضـت اليـك فليـت شـعري مـن يكـون للنـاس يـوم تكـون شـيطانا، ومـن يكـون يـوم تغضـب إمامـا، ومـا كان اللـه ليجمـع لـك أمـر هـذه الأمـة وانـت علـى هـذه الصفـة.

ثـم أقبـل علـى طلحـة قائـلا: أقـول أم أسـكت؟ قـال: قـل فانـك لا تقـول مـن الخيـر شـيئا، قـال: أمـا انـي أعرفـك منـذ أصيبت أصبعـك يـوم أُحـد، والبـاد الـذي حـدث لـك، لقـد مـات رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم سـاخطا علـى الكلمـة التـي قلتهـا يـوم أنزلـت آيـة الحجـاب (١)

ثـم أقبـل علـى سـعد بـن أبـي وقّـاص قائـلا: أمـا انـت صاحـب منقـب مـن هـذه المناقـب، - أي صاحـب جيـش - تقاتـل بـه، وصاحـب قنـص وقـوس وأسـهم، ومـا زهـرة الخلافـة وأمـور المسـلمين.

وتوجّـه الـى ابـن عـوف قائـلا: أمـا انـت يـا عبـد الرحمـن، فلـو وُزن نصـف إيمـان المسـلمين بإيمانـك لرجـح إيمانـك بـه،

(١) قال الجاحظ: لما نزلت اية الحجاب، قال طلحة بمحضر ممن نقل عنه الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ما الذي يغنيه حجابهن اليوم، سيموت غدا فننكحهن.

ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك.

ثم خاطب عثمان قائلا: هيها اليك، كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني ابي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء فثارت اليك عصابة من آبات العرف فذبحوك على فراشك ذبحا، والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن، ثم أخذ بناصيته قائلا: فاذا كان كذلك فاذكر قولي فإنه كائن.

وأقبل أخيرا على علي بقوله: لله انت لولا دعابة فيك، أما والله لئن ولّيتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: أنظر يا ابا طلحة، إذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلا من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله وأجمعهم في بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فان اتفق خمسة وأبى واحد فأضرب عنقه، وإن اتّفق أربعة وأبى اثنان فاضرب عنقيهما، وان اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن، فارجع الى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقهم، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

وكان ما كان من أمر الشورى واجتماع الستة حيث انتهى الأمر بتنصيب عثمان. ويعترض الإمام عليه السّلام بنقطتين مهمتين على قصة الشورى، يلخّصهما بقوله:

حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا في جَمَاعَة زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَاللهِ وَلِلشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ (١) الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هذِهِ النَّظَائِرِ.(خطبة ٣)

فالنقطة الأولى التي يسجلها الإمام عليه السّلام على حكاية الشورى، هي أن ترتيب أفراد الشورى بهذا الشكل يخرج الإمام عليه السّلام من المنافسة الحقيقية، بمعنى ان إحتمال فوزه بالأمر أقل بكثير من احتمال فوز البقية، ويوضح الإمام عليه السّلام هذا الأمر حين يقول في تتمة حديثه:

فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه (٢) وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَن وَهَن (٣) إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجَاً حِضْنَيْهِ (٤) بَيْنَ نَثِيلِهِ (٥) وَمُعْتَلَفِه.(خطبة ٣)

(١) الاعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عَرْضاً في حال سيره طولاً.

(٢) الضِّغْنُ: الضّغِينَة والحقد.

(٣) مع هَن وَهَن: أي أغراض أخرى أكره ذكرها.

(٤) نافجاً حضْنَيْه: رافعاً لهما، والحِضْن: ما بين الابط والكَشْح، يقال للمتكبر: جاء نافجاً حِضْنَيْه.

(٥) النّثِيلُ: الرّوْثُ وقذَر الدوابّ.

فمـا جـرى يـوم إجتمـع السـتة للتشـاور كان تمامـا كمـا رُسـم لـه، فالخطـة كانـت مدبـرة بحيث يتولّـى عثمان الخلافـة وهكذا كان. ونظـرة قصيـرة علـى أفراد الشـورى توضح هـذا الأمر، وفيمـا يلـي نسـتعرضهم واحـدا فواحـد لنفهـم وضعهـم كما قال الإمـام عليه السّـلام.

سـعد هـو ابـن عـم عبـد الرحمـن، وهـو فـي نفـس الوقـت حاقد علـى الإمـام عليـه السّـلام، لأن أمـه مـن بنـي أميـة، فعلـيّ هـو قاتـل أخوالـه، فمـن الطبيعـي إذن أن ينحـاز عـن الإمـام عليـه السّـلام وينضـمّ الـى ابـن عمـه عبـد الرحمـن فسـعد هـو الـذي صغـى لضغنـه، أي لحقـده.

وعبـد الرحمـن كان صهـرا لعثمـان، وكان بينهمـا صـلات علـى مـا يذكـره الـرواة، ومـن جهـة أخـرى فعبـد الرحمـن مـن تيـم، وعلـي مـن هاشـم، وبيـن الفريقيـن موجـدة حيـث أن «تيـم» ممثلـة بأبـي بكـر إغتصبـت الخلافـة مـن بنـي هاشـم، ولهـذا انضـم عبـد الرحمـن الـى عثمـان.

فأصبـح هـؤلاء الثلاثـة وقـد اتفقوا علـى عثمان، ولـم يعد هناك مجـال للوقـوف فـي وجههـم حيـث ان عبـد الرحمـن هـو الـذي بيـده إبـرام الامـر، والكلمـة النهائيـة. فالأمر إذن كان مدروسـا منـذ البدايـة لتكـون نتيجتـه لصالـح عثمـان، ولذلـك رأينـا عمر يتنبـأ منـذ البدايـة بتولّـي عثمـان، فكـون الإمـام عليـه السّـلام

داخـلا بيـن السـتة لا يعنـي أبـدا أنـه أُعطـي فرصـة متكافئـة مـع الآخريـن للفـوز بالخلافـة، فهـو مُبعـد عنهـا بالضـرورة.

وأمـا النقطـة الثانيـة مـن إعتـراض الإمـام عليـه السّـلام فهـي فـي نفـس طـرح اسـمه علـى لائحة واحـدة مع هؤلاء الخمسـة، لأن مقامـه غيـر مقامهـم، ويكفينـا مـا ذكـره عُمـر عـن سـيرة هـؤلاء، فالزبيـر يعبّـر عنـه بأنـه يومـا إنسـان ويومـا شـيطان، وطلحـة مـات رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم وهـو سـاخط عليـه، وسـعد صاحـب صيـد وقـوس وأسـهم، وعبـد الرحمـن فيـه ضعـف ووهـن، وأمـا عثمـان فحـدّث ولا حـرج. ولـم يجـد عمـر عيبـاً فـي علـيّ، ولكـن كان لا بـد مـن إيجـاد أمـر مـا فيـه ليكـون لـه أسـوة بالبقيـة، فاتهمـه بـأن فيـه دعابـة وهـي تهمـة يرفضهـا الإمـام عليـه السّـلام بشـدة، ولنسـتمع اليـه كيـف أغلـظ القـول لعمـرو بـن العـاص عندمـا إتهمـه بهـا فيمـا بعـد، حيـث قـال عليـه السّـلام:

عَجَبـاً لِابْـنِ النَّابِغَـةِ، يَزْعُـمُ لِأَهْـلِ الشَّـامِ أَنَّ فِـيَّ دُعَابَـةً (١) وَأَنِّـي امْـرُؤٌ تِلْعَابَـةٌ (٢) أُعَافِـسُ (٣) وَأُمَـارِسُ، لَقَـدْ قَـال بَاطِـلاً، وَنَطَـقَ آثِماً.(خطبـة ٨٣)

(١) الدُعابة بالضم: المزاح واللعب

(٢) تِلعابة بكسر التاء: كثير اللعب.

(٣) أُعافِس: أعالج الناس وأُضاربهم مِزاحاً، ويقال: المعافسة: معالجة النساء بالمغازلة والممارسة كالمُعافَسة.

وانـت إذا تاملـت حـال علـيّ عليـه السّـلام فـي أيـام رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم وجدتـه بعيـدا عـن الدعابـة والمـزاح، لانـه لـم ينقـل عنـه شـيء مـن ذلـك أصـلا. وقـد يعجـب البعـض كيـف يرضـى عُمـر بعثمـان خليفـة علـى المسـلمين مـع مـا يعـرف مـن حالـه ! ويـزول العجـب عندمـا نعـرف أن عُمـر كان يُعيـد يـداً بيضـاء كانـت لعثمـان عنـده، يقـول إبـن أبـي الحديـد فـي الشـرح:

عندمـا كان أبـو بكـر علـى فـراش المـوت قـال لعثمـان أكتب:«بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم، هـذا مـا عهـد بـه عبـد اللـه ابـو بكـر بـن ابـي قحاطـة الـى المسـلمين، أمـا بعـد... ثـم أُغمـي عليـه. وكتـب عثمـان: وقـد استخلفت عليكـم عُمـر بـن الخطـاب، وأفـاق ابـو بكـر فقـال: إقـرأ، فقـرأه، فكبّـر ابـو بكـر وسُـر» (١)

والـذي تجـدر الإشـارة اليـه هـو أن معظـم نقـد الإمـام عليـه السّـلام للخليفتيـن كان ضمـن الخطبـة الشقشـقية، فلـم يُعـرف عنـه أنـه تعـرّض لهمـا فـي غيـر هـذا المواضـع، وكان بعـد توليـه الخلافـة، ولـو لاحظنـا تتمـة الخطبـة لتيقَـن لدينـا أن الإمـام عليـه السّـلام لـم يـأت بهـا عـن سـابق تصميـم، والتتمة:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٣٢٨

قالـوا: وقـام إِليـه رجـل مـن أهـل السـواد (١) عنـد بلوغـه إلـى هـذا الموضـع مـن خطبتـه، فنـاولـه كتابـاً، فأقبـل ينظـر فيـه، فلمّـا فـرغ مـن قراءتـه قَـال لـه ابـن عبـاس: يـا أميـر المؤمنيـن، لـو اطَّـرَدت مَقالتـكَ مـن حيـث أَفضيـتَ (٢) فَقَال عليـه السـلام: هَيْهَـاتَ يَابْـنَ عَبَّاس! تِلْـكَ شِقْشِـقَةٌ (٣) هَدَرَتْ (٤) ثُـمَّ قَـرَّتْ (٥). قَـال ابـن عبـاس: فوالله مـا أَسـفت علـى كلام قطّ كأَسفي علـى ذلـك الـكلام أَلاَّ يكون أميـر المؤمنين عليـه السـلام بلـغ منـه حيـث أراد.(خطبـة ٣)

والإمـام عليـه السّـلام لـم يقـل هـذا الـكلام إلا عندمـا أصبـح الصبـر عليـه مسـتحيلا، صبـر خمسـاً وعشـرين سـنة علـى غَصـب حقـه فـي الخلافـة، ولـم تصـل اليـه بعـد هـذه المـدة الا وقـد تحولّـت الـى ملـك كسـروي، وبعد فسـاد أمور المسـلمين،

(١) السّوَاد: العراق، وسُمّيَ سواداً لخضرته بالزرع والاشجار، والعرب تسمي الاخضر أسود.

(٢) أفْضَيْتَ: أصل أفضى: خرج إلى الفضاء، والمراد هنا سكوت الامام عماكان يريد قوله.

(٣) الشّقْشِقَةُ بكسر فسكون فكسر: شيء كالرّئَةِ يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

(٤) هَدَرَتْ: أَطْلَقَتْ صوتاً كصوت البعير عند إخراج الشِقْشِقَةِ من فيه، ونسبة الهدير إليها نسبة إلى الالة.

(٥) قَرّتْ: سكنت وَهَدَأتْ.

وما أن تولاها حتى نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون.

ولكن بالرغم من هذه المعاناة ما أن ناوله الرجل الكتاب ونظر فيه حتى كانت نفسه قد هدأت، فأعرض عن متابعة كلامه.

النّقد على عُثمان

عثمان كان يختلف كثيرا عن من سبقه، فهو كان موضعا للإنتقاد من قِبل غالبية الصحابة، ولعل الإمام عليه السّلام كان أقلهم إنتقادا له، فمن ذلك ما ورد في الخطبة الشقشقية المذكورة حيث يقول عليه السّلام:

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجَاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ.(خطبة ٣)

ومن كلام له عليه السلام في معنى قتل عثمان:

اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الأَثَرَةَ. (١) (خطبة ٣٠)

(١) أساء الأَثَرَةَ: أساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم

الفصل الخامس:

مبرّرات الإمام عليه السّلام

سَبق وأوضحنا موقف الإمام عليه السّلام من الخلفاء، وقلنا أنه كان كارها لأمرهم غير مقتنع بهم، ولكنه مع ذلك لم يحاول القيام بأي تحرّك يضرّ بهم أو يُباعد الناس عنهم، بل العكس هو الصحيح إذ كان يُدافع عنهم إذا اقتضت الحال ذلك، كما كان من أمره مع أبي سفيان، والذي نريد بحثه في هذا الفصل، هو حول مبرّرات الإمام عليه السّلام في موقفه هذا.

عند تتبعنا لكلمات الإمام عليه السّلام في نهج البلاغة، نجد أنه يبّرر عدم تحركه بثلاثة أمور:

أحدها: هو زهده في الخلافة. ثانيها: قلة الناصر والمعين له. والثّالث: خوفه من وقوع الفتنة إذا ما قام للمطالبة بحقه. وفيما يلي نستعرض كلمات الإمام عليه السّلام حول كل واحد من هذه المبررات الثلاث.

زُهد الإمام عليه السّلام بالخلافة

إذا كانت الدنيا بأسرها لا تساوي عند الإمام عليه السّلام أكثر من عفطة عَنز، فأي شيء ستكون قيمة الخلافة

وغيرها عنده؟ ليس أكثر من النعل التي يحتذيها:

قَال عبدالله بن عباس رحمه الله: دخلت على أَمير المؤمنين صلوات الله عليه بذي قار وهو يخصِف نعله فقَال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمةَ لها! قال: والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ من إِمرتكم، إِلاّ أَن أُقيم حقّاً، أَو أَدفع باطلا.(خطبة ٣٣)

ولما عزموا على بيعة عثمان أوضح الإمام عليه السّلام موقفه، فقال:

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ.(خطبة ٧٣)

وقال أيضا:

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ، وَلاَ فِي الْوِلاَيَةِ إِرْبَةٌ.(خطبة ٢٠٥)

فأول تلك الاسباب التي دعت الإمام عليه السّلام للسكوت عن المطالبة بالخلافة، كان لزهده بها.

فقدان النّاصر

المبرّر الثاني لقعود الإمام عليه السّلام هو فقدان النّاصر الذي تقام به الحجة. وفيما يلي نتتبع بعض كلامه في نهج البلاغة الذي يوضح فيه هذا الأمر، فمن ذلك ما حكاه عن موقفه بعد مبايعة أبي بكر:

وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَد جَذَّاءَ (١) أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَة (٢) عَمْيَاءَ.(خطبة ٣)

وبعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما أتاه العباس وأبو سفيان يعرضان عليه أن يبايعاه بالخلافة أجابهما عليه السّلام:

أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاح، أوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ.(خطبة ٥)

وفي معرض التظلّم عما كان من أمور ما بعد السقيفة قال:

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ المَوْتِ.(خطبة ٢٦)

وإذا ما ضممنا زُهد الإمام عليه السّلام بالخلافة الى ما ذكره هنا، لتبيّن لدينا أنه عليه السّلام يريد أن يقول:

(١) الجَذّاءُ بالجيم والذال المعجمة: المقطوعة.
(٢) طَخْيَة بطاء فخاء بعدها ياء، ويثلّثُ أوّلها: ظلمة

انّ الحجّة لم تقم عليه ليناهض القوم ويقف في وجوههم. فهو لم يكن يبحث عن مصلحته الشخصية، بل كان يبحث عن تكليفه الشرعي الذي يجب عليه تطبيقه، وكان يرى أن الحجة المُلزمة له للقيام بالسّيف لم تقم عليه، ولذا قال: «لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم». وعندما ظن الذين كانوا يجتمعون اليه أنهم قد بلغوا العدد المطلوب طلبوا اليه القيام بالأمر. فأجابهم:«أُغدوا على هذا محلَقي الرؤوس» فلم يعد إلا ثلاثة نفر، فالنّاصر الحقيقي للامام كان عبارة عن أهل بيته فقط، ولم يكن الإمام عليه السّلام على استعداد أن يخوض معركته بهم، خوفا من انقطاع نسل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

خشية وقوع الفتنة

قبل البدء باستعراض كلمات الإمام عليه السّلام التي تفيد خشيته من وقوع الفتنة، نريد أن ندفع توهما قد يحصل للبعض، إذ قد يقال: ما دام الإمام عليه السّلام يشكو قلَة الناصر، ويعترف أن يده جذّاء، فهو إذن لا يستطيع القيام بالسيف على أية حال، سواء خاف وقوع الفتنة أم لا.

ويُجاب عن هذا التوهّم، بأن الإمام عليه السّلام وإن كان يشكو قلّة النّاصر، ولكن هذا لا يعني أنه وحيد في الساحة، إذ كان حوله بني هاشم بأجمعهم، وبعض المؤيدين

لهم، وكان هناك أصحاب المصالح أمثال أبي سفيان حيث عرض نفسه على الإمام عليه السّلام قائلا: فوالله لئن شئت لاملؤها خيلاً ورجلاً. ومجموع هؤلاء يشكل جبهة لا يستهان بها، فيمكن حينئذ مواجهة القوم، حيث تكون الفرص متكافئة عند كِلا الطرفين.

ولكن ما هي نتيجة مثل هذا العمل، هل تكون إلا فتنة عمياء تفني المسلمين.! فما دامت القوى متوازية فلا يمكن أن يوجد منتصر، وحتى لو انتصر أحد الطرفين عسكريا، فإن الطرف الآخر باق على كل حال ويستحيل أفناؤه، فيبقى يتحيّن الفُرص والدوائر أن تنزل بالطرف الآخر لينقضّ عليه، وهذه هي الفتنة التي يخشاها الإمام عليه السّلام. ومن هنا نفهم أن الناصر الذي كان يريده الإمام عليه السّلام، عبارة عن تأييد الغالبية العظمى، فتبقى الأقلية شرذمة ليس بيدها شيء، وإذا ما تحقق ذلك يمكن حينئذ القيام والمطالبة دون خشية العواقب.

ونعود الآن لنتقصى كلمات الإمام عليه السّلام حول هذا الموضوع، يقول عليه السّلام:

فَمَا رَاعَنِي (١) إِلاَّ انْثِيَالُ (٢) النَّاسِ عَلَى فُلاَن يُبَايِعُونَهُ،

(١) راعَني: أَفْزَعَني.

(٢) انثِيال الناس: انصبابهم.

فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ (١) قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلاَمِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُم.(كتاب ٦٢)

فالاسلام في محنة، وواجب الإمام عليه السّلام مناصرته، وليس أقل من السكوت عن المطالبة بحقه، وعندما عَرض العبّاس وأبو سفيان مبايعته ، قال عليه السّلام من جملة كلامه:

أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ.(خطبة ٥)

فكان يرى الفتنة في قبوله المبايعة بلا شك، وما دامت النجاة منها ممكنة، فهي الطريق الواجب اتّباعه، ويتابع عليه السّلام خطابه لهما بقوله:

وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا (٢) كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ.(خطبة ٥)

فأوان المطالبة لم يحن بعد، والإمام عليه السّلام يدرك انّ هذا الأمر كائن له، وصائر اليه لا محالة، فهذه الثمرة

(١) رَاجِعَة الناس: الراجعون منهم

(٢) إِينَاعُها: نضجها وإدراك ثمرها.

لا بـد أن تَينـع، ويقطفهـا صاحبهـا. وكان كمـا توقّـع الإمـام عليـه السّـلام، فـكان الأمـر اليـه فـي النهايـة، فوصلـت اليـه الخلافـة، ولكـن لـم تكـن علـى عهدهـا السـابق، فقـد تحوّلـت فـي الفتـرة الأخيـرة الـى ملـك كسـروي أشـبه منـه بخلافـة إسـلامية، وأدى ذلـك الـى مقتـل الخليفـة عثمـان.

فمـاذا فعـل عثمـان، وكيـف كانـت ظـروف مقتلـه؟ هـذا هـو موضوعنـا للفصـل التالـي.

الفصل السّادس:

خلافة عُثمان

كان الخليفة الثّاني عُمر بن الخطّاب، رجلاً بعيد النظر، وقد سبق وذكرنا كيف أنه عندما كان على فراش الموت، خاطب عثمان بحضور أعضاء الشورى، فقال له:

هيها اليك، كأني بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء فثارت اليك عصابة من رابان (١) العرف فذبحوك على فراشك.

لقد صدق حدس إبن الخطّاب ثلاث مرات في حق عثمان: إذ تولى خلافة المسلمين، وحمل بنى أمية على رقاب الناس، وكانت النتيجة التي توقعها عُمر، مقتل عثمان في فتنة عمياء. وموقف الإمام عليه السّلام من عثمان كان موقف النّاصح المرشد، ولكن أنَّى لعثمان أن يستمع الى الناصح والمشفق؟ وحديثنا في هذا الفصل يدور حول عثمان وسيرته، والظروف التى أدّت الى مقتله، وموقف الإمام عليه السّلام منه.

(١) رابان العرف: الإبل الضخم زهاء سبعين والرجال الأقوياء

إستئثار عُثمان

يوجز أمير المؤمنين علي عليه السّلام إستئثار عثمان بما بين يديه بقوله:

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالاً (١) فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّروا.(خطبة ٤٣)

وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الأَثَرَةَ (٢) وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَعَ.(خطبة ٣٠)

ولكنها أية أثرة كانت، فلنستمع الى الإمام عليه السّلام يصفها في الخطبة الشقيقية، حيث يقول:

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ (٣) بَيْنَ نَثِيلَهِ (٤) وَمُعْتَلَفِهِ (٥) وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ.(خطبة ٣)

(١) أوْجَدَ الناسَ مَقالاً: جعلهم واجدين له.

(٢) أساء الأَثَرَةَ: أساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم.

(٣) نافجاً حضْنَيْه: رافعاً لهما، والحِضْن: ما بين الابط والكَشْح، يقال للمتكبر: جاء نافجاً حِضْنَيْه.

(٤) النّثِيلُ: الرّوْثُ وقذَر الدوابّ.

(٥) المُعْتَلَفُ: موضع العلف.

يشبّه الإمام عليه السّلام أكلهم لأموال المسلمين«بالخضم»

وهو الأكل بملء الفم، وشبّه أموال المسلمين بنبتة ربيعية طرية، وهي أصدق صورة، تُرسم لواقع الحال آنذاك.

يحدثنا التاريخ بالشيء الكثير عن كيفية إستئثار عثمان وأقاربه بالسلطة، فالبلاد الإسلامية الشاسعة أصبحت كلها تحت حكم بني أمية، فكان لا يحقّ لغير الأمويّ أن يتولى أبدا، وكان استلام أحد ولاتهم لبعض المناطق معناه إطلاق يده فيها، أي ملكيته لها، حتى قال والي الكوفة سعيد بن العاص «إن السواد بستان لقريش وبني أمية».

وقد كانت تصرّفات عثمان لا تحتمل حتى كان ابن عوف أوّل من اعترض عليه في ذلك - وقد تقدم انه هو من أوصله للخلافة - فعندما رأى أفعال عثمان وقومه، قال له: يا بن عفّان، لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك، وإني أستعيذ الله من بيعتك، فغضب عثمان وأمر غلامه بإخراجه بعد ان أمر الناس ألّا يكلموه أبدا. فكان ابن عوف يقول: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما وليت عثمان شسع نعلي».

وعلى كثرة الوعّاظ لعثمان، كان هذا الأخير يردّهم رداً عنيفاً ومن هؤلاء أبو ذر الغفاري، الصحابي الكبير، فكان يؤنّب عثمان وجماعته إذ يقول مخاطبا لهم:«أتخذتم مستور الحرير، ونضائد الديباج، وأِلفتم الاضطّجاع على

الصّـوف الأذربـي، وكان رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم ينـام علـى الحصيـر، واختُلـف عليكـم بألـوان الطعـام، وكان رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم لا يشـبع مـن خبـز الشـعير. ثـم يتلـو قولـه تعالـى:«والَّذِيـنَ يَكْنِـزُونَ الذَّهَـبَ وَالْفِضَّـةَ وَلا يُنْفِقُونَهَـا فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ بِمَـكَاوٍ مِـنْ نَـارٍ ، تُكْـوَى بِهَـا جِبَاهُهُـمْ ، وَجُنُوبُهُـمْ ، وَظُهُورُهُـمْ» (١).

فـكان نصيبـه مـن ذلـك النفـي والتشـريد مـن مـكان الـى آخـر، حتـى كان مماتـه أو مقتلـه، بعيـدا فـي الربـذة.

ولـم يكـن نصيـب عمّـار بـن ياسـر بأقـل مـن صاحبـه، فقـد دخـل علـى عثمـان حامـلاً رسـالة مـن الصّحابـة يذكـرون فيها شـواذات ولاة عثمـان، ويطالبـون بإصلاحهـا، فـكان جـزاؤه أن إنهـال عليـه عثمـان بالضّـرب ومـن حضـر مجلسـه مـن بنـي أميـة، حتـى فتقـت بطنـه، ثـم ألقـوا بـه فـي الشـارع وهـو بالـكاد يكـون حيـاً وعمّـار بـن ياسـر هـو إبـن أوّل شـهيدين فـي الإسـلام.

وعظ الإمام عليه السّلام

الإمـام عليـه السّـلام كان أيضـا مـن الصحابـة الذيـن كانـوا يتـردّدون علـى عثمـان محاوليـن نصحـه بالرجـوع الـى الخطالقويـم الـذي رسـمه النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم

(١) سورة التوبة آية ٣٤

فيدخل عليه مرة قائلا:

إِنَّ النَّـاسَ وَرَائِـي، وَقَـدِ اسْتَسْـفَرُونِي (١) بَيْنَـكَ وَبَيْنَهُـمْ، وَوَاللـهِ مَـا أَدْرِي مَـا أَقُـولُ لَـكَ! مَـا أَعْرِفُ شَـيْئاً تَجْهَلُـهُ، وَلاَ أَدُلُّـكَ عَلَـى أَمْـر لاَ تَعْرِفُـهُ، إِنَّـكَ لَتَعْلَـمُ مَـا نَعْلَـمُ، مَـا سَـبَقْنَاكَ إِلَـى شَـيْء فَنُخْبِـرَكَ عَنْـهُ، وَلاَ خَلَوْنَـا بِشَـيْء فَنُبَلِّغَكَـهُ، وَقَـدْ رَأَيْـتَ كَمَـا رَأَيْنَـا، وَسَـمِعْتَ كَمَـا سَـمِعْنَا، وَصَحِبْـتَ رَسُـولَ اللـه صلـى اللـه عليـه وآلـه كَمَـا صَحِبْنَـا. وَمَـا ابْـنُ أَبِـي قُحَافَـةَ وَلاَ ابْـنُ الْخَطَّـابِ بِأَوْلَـى بِعَمَـلِ الْحَـقِّ مِنْـكَ، وَأَنْـتَ أَقْـرَبُ إِلَـى رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه وَشِـيجَةَ (٢) رَحِـم مِنْهُمَـا، وَقَـدْ نِلْـتَ مَـنْ صَهْـرِهِ مَـا لَـمْ يَنَالاَ.(خطبـة ١٦٤)

وليـس هـذا مـن قَبيـل تواضـع الإمـام عليـه السّـلام حيـن يُسـاوي بينـه وبيـن عثمـان فـي العلـم، لأنه إنمـا يقصـد بالعلوم التـي يسـاويه عثمـان فـي معرفتهـا، وهـي لا تتعـدّى الأحـكام الشـرعية الأوليـة التـي يعلمهـا كل صحابـي عـن طريـق سـماعها مـن النبـي، ومـن أهـم تلك الأحـكام، عدم ظلـم الرعية وأكل أموالهـم بالباطـل، وهـذا مـا لا يتقيـد بـه الخليفـة. ويكمـل الإمـام عليـه السّـلام حديثـه لعثمـان مذكـرا إيـاه بمسـلك أبـي

(١) اسْتَسْفَرُوني: جعلوني سفيراً.

(٢) الوَشِيجة: اشتباك القرابة.

بكر وعمر، فيقول:

وَمَـا ابْـنُ أَبِـي قُحَافَـةَ وَلاَ ابْـنُ الْخَطَّـابِ بِأَوْلَـى بِعَمَـلِ الْحَـقِّ مِنْـكَ، وَأَنْـتَ أَقْـرَبُ إِلَـى رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه وَشِـيجَةَ رَحِـم مِنْهُمَـا، وَقَـدْ نِلْـتَ مَـنْ صَهْـرِهِ مَـا لَـمْ يَنَـالاَ. فَاللـهَ اللـهَ فِـي نَفْسِـكَ! فَإِنَّـكَ وَاللـهِ مَـا تُبَصَّـرُ مِنْ عَمـىً، وَلاَ تُعَلَّـمُ مِـنْ جَهْـل، وَإِنَّ الْطُّـرُقَ لَوَاضِحَـةٌ، وَإِنَّ أَعْـلاَمَ الدِّيـنِ لَقَائِمَةٌ.(خطبـة ١٦٤)

والـى هنـا يكـون الإمـام عليـه السّـلام قـد وضـع عثمـان فـي الجـوّ الـذي يؤهلـه، بـل يشـوقه لسـماع بقيـة الحديـث، ومـا تقدّم مـن الـكلام كان توطئـة لمـا يريـد قولـه فيمـا بعـد، فالإمام عليـه السّـلام قـد أخبـره أولا: بـأن النـاس غيـر راضيـن عـن سـلوكه. وثانيـا: انّ سـلوكه يخالـف مـا تعهّـد بـه لعبـد الرحمـن بـن عـوف عندمـا اشـترط عليـه لتسـليمه الخلافـة أن يسـير بسـيرة الشـيخين. وثالثـا: أن مـا يفعلـه عثمـان لا يُعـذر بـه ابـدا، لأن حرمتـه مـن البديهيـات التـي يعلمهـا عثمـان. وبعـد هـذه المقدمـة يقـول الإمـام عليـه السّـلام مخاطبـا لـه:

فَاعْلَـمْ أَنَّ أَفْضَـلَ عِبَـادِ اللـهِ عِنْـدَ اللـهِ إِمَـامٌ عَـادِلٌ، هُـدِيَ وَهَـدَي، فَأَقَـامَ سُـنَّةً مَعْلُومَـةً، وَأَمَـاتَ بِدْعَـةً مَجْهُولَـةً، وَإِنَّ السُّـنَنَ لَنَيِّـرَةٌ، لَهَـا أَعْـلاَمٌ، وَإِنَّ الْبِـدَعَ لَظَاهِـرَةٌ، لَهَـا أَعْـلاَمٌ،

وَإِنَّ شَـرَّ النَّـاسِ عِنْـدَ اللـهِ إِمَـامٌ جَائِـرٌ ضَـلَّ وَضُـلَّ بِـهِ، فَأَمَـاتَ سُـنَّةً مَأْخُـوذَةً، وَأَحْيَـا بِدْعَـةً مَتْرُوكَةً.وَإِنـي سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه يَقُـولُ: «يُؤْتَـى يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ بِالإِمَـامِ الْجَائِـرِ وَلَيْـسَ مَعَهُ نَصِيـرٌ وَلاَ عَـاذِرٌ، فَيُلْقَى فِـي نَـارِ جَهَنَّـمَ، فَيَـدُورُ فِيهَـا كَمَـا تَـدُورُ الرَّحَـى، ثُـمَّ يَرْتَبِـطُ (١) فِـي قَعْرِهَـا.

وَإِنـي أَنْشُـدُكَ اللـهَ أنْ تَكُـونَ إِمَـامَ هـذِهِ الأُمَّـةِ الْمَقْتُـولَ، فَإِنَّـهُ كَانَ يُقَـالُ: يُقْتَـلُ فِـي هـذِهِ الأُمَّـةِ إِمَـامٌ يَفْتَـحُ عَلَيْهَـا الْقَتْـلَ وَالْقِتَـالَ إِلـى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ، وَيَلْبِـسُ أُمُورَهَـا عَلَيْهَـا، وَيَبُـثُّ الْفِتَـنَ فِيهَـا، فَـلاَ يُبْصِـرُونَ الْحَـقَّ مِـنَ الْبَاطِـلِ، يَمُوجُـونَ فِيهَـا مَوْجـاً، وَيَمْرُجُـونَ فِيهَـا مَرْجاً (٢) فَـلاَ تَكُونَـنَّ لِمَرْوَانَ سَـيِّقَةً (٣) يَسُـوقُكَ حَيْـثُ شَـاءَ بَعْـدَ جَـلاَلَ السِّـنِّ وَتَقَضِّـي الْعُمُـرِ.

فَقَـال لَـهُ عُثْـمَانُ: كَلِّـمِ النَّـاسَ فِـي أَنْ يُؤَجِّلُونِـي، حَتَّـى أَخْـرُجَ إِلَيْهِـمْ مِـن مَظَالِمِهِـمْ، فَقَـال عليـه السـلام: مَـا كَانَ بِالْمَدِينَـةِ فَـلاَ أَجَـلَ فِيـهِ، وَمَـا غَـابَ فَأَجَلُـهُ وُصُـولُ أَمْـرِكَ إِلَيْهِ.(خطبة ١٦٤)

(١) ربطه فارتبط: أي شدّة وحبسه.

(٢) المَرْج: الخلط.

(٣) الّسيِّقة كَكَيّسة: ما استاقه العدو من الدواب.

وكان الإمـام عليـه السّـلام يحـدّث أصحابـه فيمـا بعـد عـن موقفـه مـن عثمـان، وانـه لـم يتـرك فرصـة فـي سـبيل نصحـه وهدايتـه، فيقـول فـي كتـاب الـى أهـل الكوفـة :

إِنَّ النَّـاسَ طَعَنُـوا عَلَيْـهِ، فَكُنْـتُ رَجُـلاً مِـنَ الْمُهَاجِرِيـنَ أُكْثِـرُ اسْـتِعْتَابَه (١) وَأُقِـلُّ عِتَابَهُ.(كتاب ١)

ومن كتاب الى معاوية:

فَـإِنْ كَانَ الذَّنْـبُ إِلَيْـهِ إِرْشَـادِي وَهِدَايَتِـي لَـهُ، فَـرُبَّ مَلُـوم لاَ ذَنْـبَ لَهُ.(كتـاب ٢٨)

ولكـن عثمـان لـم يعـد مالـكاً لأمره، فـكان التغييـر بالنسـبة اليه مستحيلاً، ولـذا طلـب مـن الإمـام عليـه السّـلام أن يكـف عـن محاولاتـه، ولـو كانـت لـدى عثمـان الجـرأة الكافيـة والقـوة اللازمـة، لفعـل بعلـيّ عليـه السّـلام مـا كان قـد فعلـه بسـواه مـن الصحابـة. ولعـل أهـم عـورات عثمـان كانـت مشـاركته لمـروان بـن الحكـم فـي جميـع أمـوره، ولـذا خصصنـا الفقـرة التاليـة للحديـث عنـه.

مروان الطّريد

أكثـرَ الصحابـة مـن إنتقـاد عثمـان بسـبب إسـتقدامه مـروان بـن الحكـم طريـد رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم

(١) استعتابه: استرضاؤه.

وتسليمه الكثير من أمور المسلمين، فهذا خازن بيت المال زيد بن أرقم يأتي اليه باكياً ويدفع اليه المفاتيح طالبا الإقالة، والسبب في ذلك هو أمر الخليفة لخازنه إعطاء مروان مائتى الف، فى حين أنه لو أعطاه مئة لكان كثيرا عليه كما قال زيد.

وكانت تصرفات مروان فعلاً لا تطاق، فهو الذي حرض عثمان على ضرب عمّار بن ياسر عندما جاءه برسالة الصحابة، وهو الذي سبب في نفي أبي ذّر الى الرّبذة، وحاول منع عليّ من توديعه، ولكن عليا ضرب وجه راحلته بسوطه ثم شتمه ومضى. حتى أنه توصل الى تحريض عثمان على عليّ عليه السّلام، وذلك عندما أخبره أن علياً قد خالف أمره وشايَعَ أبا ذر، وقد كان عثمان نهى عن تشييعه، فيغضب الخليفة لذلك أشدّ الغضب. ويأتي جماعة الى عليّ يخبرونه بذلك قائلين: «انّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك ابا ذر». فيجيبهم علي متهكماً:«غضب الخيل على اللجم».

ولنستمع الى هذا الحوار الذي جرى بين عليّ عليه السّلام وعثمان بحضور مروان الدّاهية. سأل عثمان عليّا: ما حملك على ما صنعت بمروان واجترأت عليّ، ورددت رسولي وأمري؟ فأجاب عليه السّلام: أما مروان فإنه استقبلني يردّني، فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أردّه.

فقال عثمان: أولم يبلغك أني نهيت الناس عن أبي ذرّ وعن تشييعه؟ فيقول عليّ عليه السّلام أوكُل ما أمرتنا به من شيء يُرى طاعة الله والحق في خلافه أتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل.

والإمام عليه السّلام هو القائل «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» فكيف يطيع عثمان عندما تخالف أوامره الحق؟

وهنا يضطر عثمان للتنازل عن ملاحقة عليّ بسبب مخالفة أمره، ولكنه لا يستطيع التّنازل عن شتم مروان وضرب راحلته، فيطلب من عليّ عليه السّلام أن يعطي لمروان حق الإقتصاص منه، فيقول له: فأقِد مروان. فيجيبه عليه السّلام: وما أقِيده؟. فيقول عثمان: ضربت بين أذني راحلته. فيقول عليّ عليه السّلام أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل.

ولكن الإمام عليه السّلام يدرك انّ عثمان يريد ان يجعلها واحدة بواحدة، فيعطي لمروان الحق بضرب راحلته وشتمه كما فعل الإمام عليه السّلام به، ولذا نراه يتم كلامه بقوله: وأما أنا فوالله لو شتمني لأشتمنك انت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا.

ويستشيط عثمان غضبا لذلك ويقول للإمام: ولم لا يشتمك

إذا شتمته؟ فوالله ما انت عندي بأفضل منه. وهنا يقول الإمام عليه السّلام: إليّ تقول هذا القول، وبمروان تعدلني؟. فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نثلتها فهلمّ فأقبل بنبلك.

فالإمام عليه السّلام يبادل مروان لو شتمه بشتم عثمان، لأنه هو الذي أجرأه عليه، كما انّه عليه السّلام لا يترك مكانا للمفاضلة بينه وبين مروان، بل يلجأ الى التفاضُل على عثمان، فأين مروان طريد رسول الله من عليّ أخي رسول الله، وأخيرا فعليّ يعرض بوالد عثمان وأمّه، فماذا عن إخبارهما يا ترى؟ الكتب تحدثنا الشيء الكثير عن ذلك، ولكننا سنعفي الخليفة من التعرّض له طالما أنه أقر الإمام عليه السّلام على هذه المفاضلة ولم يحاول أن يردّها عليه بالإدّعاء أن والديه أفضل من أبي طالب وفاطمة بنت أسد.

الدّفاع عن عُثمان

في الوقت الذي كان ينادي فيه الثّوار بعزل ابن عفّان، كانوا ينادون أيضا بتنصيب الإمام عليه السّلام مكانه، وكانوا يجهرون بذلك ولا يتستّرون به، ولذا رأى عثمان أن يُبعد الإمام عليه السّلام عن المدينة مؤقتاً، حتى تخفّ مناداة الثّوار بإسمه. فأرسل اليه أن يغادر المدينة الى

(ينبـع) وهـي عيـن مـاء للإمـام خـارج المدينـة. ففعـل الإمـام عليـه السّـلام ذلـك خوفـاً مـن اتّهامـه بتحريـض النـاس للمناداة بإسـمه، ولكـن لـم يمـضِ علـى وجوده هنـاك وقـت طويل حتى شـعر عثمـان بفـراغ مكانـه، فأرسـل اليـه أن يعـود للمدينـة، فأطاعـه الإمـام عليـه السّـلام وفعـل. ولكـن مـا ان رآه النـاس بينهـم حتـى عـادوا يُنـادون بإسـمه، فعـاد عثمـان يطلـب منـه تـرك المدينـة الـى (ينبـع) وأرسـل اليـه ابـن عبّـاس يبلغـه رغبتـه، وهنـا قـال الإمـام عليـه السّـلام وقـد بـدا عليـه التآثـر والألـم:

يَابْـنَ عَبَّـاس، مَـا يُرِيـدُ عُثْـمَانُ إِلاَّ أَنْ يَجعَلَنِي جَمَـلاً نَاضِحاً (١) بِالْغَـرْبِ (٢) أَقْبِـلْ وَأَدْبِـرْ، بَعَـثَ إِلَـيَّ أَنْ أَخْـرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَـيَّ أَنْ أَقْـدُمَ، ثُـمَّ هُـوَ الاْنَ يَبْعَـثُ إِلَـيَّ أَنْ أَخْـرُجَ، وَاللـهِ لَقَـدْ دَفَعْـتُ عَنْـهُ حَتَّـى خَشِـيتُ أَنْ أَكُـونَ آثِماً.(خطبة ٢٤٠)

وكأنـه لاح للإمـام انّ عثمـان يشـكّ في أمـره ويتّهمه بتحريض الثّـوار عليـه، وهـذا ما تفيـده الجملة الأخيرة مـن كلامه:«والله لقـد دفعـت عنـه حتـى خشـيت ان أكـون آثمـا». فكأنـه يريـد أن يقـول: لمـاذا يريدنـي عثمـان أن أخـرج وأنا فـي موقف

(١) نَضَحَ الجملُ الماءَ: حمله من بئر أونهر ليسقي به الزرع فهو ناضح

(٢) الغَرْب بفتح فسكون: الدلو العظيمة، والكلام تمثيل للتسخير.

الدّفـاع عنـه لا التّحريـض عليـه. ودفـاع الإمـام عليـه السّـلام عـن عثمـان لا يعنـي أبـداً أنـه يوافـق علـى تصرفاتـه، بـل هـو مـن أشـد المعارضيـن لسياسـته ولكنـه يـرى انّ الطريـق الـذي يسـلكه الثـوار غيـر صحيـح، فقَتـل الخليفـة ليـس حـلاً، وهـو يصـرّح برأيـه فـي معنـى قتـل عثمـان بقولـه:

لَـوْ أَمَـرْتُ بِـهِ لَكُنْـتُ قَاتِـلاً، أَوْ نَـهَيْـتُ عَنْـهُ لَكُنْـتُ نَاصِـراً، غَيْـرَ أَنَّ مَـنْ نَصَـرَهُ لاَ يَسْـتَطِيعُ أَنْ يَقُـولَ خَذَلَـهُ مَـنْ أَنَـا خَيْـرٌ مِنْـهُ، وَمَـنْ خَذَلَـهُ لاَ يَسْـتَطِيعُ أَنْ يَقُـولَ نَصَـرَهُ مَـنْ هُـوَ خَيْـرٌ مِنِّـي. وَأَنَـا جَامِـعٌ لَكُمْ أَمْـرَهُ، اسْـتَأْثَرَ فَأَسَـاءَ الأَثَرَةَ (١) وَجَزِعْتُـمْ فَأَسَـأْتُمُ الجَـزَعَ (٢) وَللـهِ حُكْـمٌ وَاقِـعٌ فِي المُسْـتَأْثِرِ وَالجَازِعِ.(خطبـة ٣٠)

فهنـاك ثـلاث فئـات مـن النـاس: قاتـل، ومدافـع، ومعتـزل. أمـا القاتـل فـإن حكمـه الـى اللـه، وأمـا المدافـع فهـو ناصـر لـه، والإمـام عليـه السّـلام - كمـا تقـدم فـي حديثـه الـى إبـن عبـاس- يخشـى أن يكـون آثمـا بسـبب مدافعتـه بلسـانه أمـام الثـوّار علـى عثمـان، فكيـف اذاً حُكـم المناصـر لـه بالسـيف؟ وأمـا الإعتـزال فهـو موقـف الإمـام عليـه السّـلام.

(١) أساء الأَثَرَةَ: أساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم.

(٢) أسأتم الجَزَعَ: أي لم تَرْفُقُوا في جزعكم، ولم تقفوا عند الحد الاولى بكم.

عُثمان والثوّار

مطالب الثوار من عثمان كانت تتلخّص بأن يستبدل ولاته، ويعود للسّير بالمسلمين بسيرة الشيخين. فجمع عثمان ولاته وعرض عليهم ما يطلبه الناس، ليشير كل بما يراه.

والي البصرة عبدالله بن عامر قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجّهاد حتى يذلّوا لك، ولا تكون همّة أحدهم إلا في نفسه، وما هو فيه من دُبر دابّته وقمل فروته. وقال سعيد بن العاص: أحسم عنك الداء، وأقطع عنك الذي تخاف، وإن لكل قوم قادة متى يهلكوا، يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (١)

وأما معاوية - على ما في الإمامة والسياسة- فأشار على عثمان بأن ينفي من المدينة شيوخ المهاجرين، وكبار أصحاب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وبقية الشورى، حتى لا يجتمع منهم إثنان في مصر واحد.

فهذه وما شابهها كانت طروحات ولاة عثمان لحلّ الأزمة التي يمرّ بها، وأما أن يحاول إصلاح سيرته فهذا مما لم يشر به عليه أحد، كيف وأولى خطوات الإصلاح هي عزل هؤلاء الولاة جميعا؟ حتى عثمان نفسه لم يكن يتوقّع منهم أن يشيروا بمثل هذا الامر، بل لا يريد منهم ذلك،

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ -ص ١٣٥

فهـذا عمـرو بـن العـاص - ولمصلحـة إعتـرف بهـا - قـال: يـا أميـر المؤمنيـن إنـك قـد ركبـت ببنـي أميـة ففلـت وقالـوا، وزغـت وزاغـوا، فاعتـدل أو إنـزل، فـإن أبَيـت فاعـزم عزمـاً، وامـض قدمـاً. فمـا كان من عثمـان الا ان جابهه بـكلام عنيف، فقـال لـه: مـا لـك قمّـل فـروك، أهـذا بجـدّ منـك؟

واسـتمرّ عثمـان فـي سـيرته، وثـار النـاس عليـه وقتلـوه، وبذلـك أصبـح منصـب الخلافـة شـاغرا، وبحاجـة الـى مـن يشـغله، فاختـارت النـاس خليفتهـا، ولـم يكـن غيـر علـيّ بـن أبـي طالـب.

الفصل السّابع:

خلافة الإمام عليه السّلام

كيفية البيعة

في كل ثورة - اذا كتب لها النجاح - تنتقل مقاليد الحكم الى الثوار، ويصبح بأيديهم تعيين الحكومة التي تحكمهم. وهذا أمرٌ معترف به، بل هو أهم ما يجب الإعتراف به لهم، فانهم ما قاموا بثورتهم الّا من اجل تغيير أوضاع الحكم الفاسدة. وفي سنة خمسة وثلاثين للهجرة، حدثت في تاريخ الأمة الاسلامية ثورة، ثورة حقيقية تحوي المقوّمات المطلوبة، حكومة جائرة، وشعب حيّ له أهداف يريد من حكومته تنفيذها، ولكن خطّها الجائر الذي تسلكه يقف سداً حائلاً بينهم وبين مطالبهم..

وهنا يثور الشعب ويُقصي الحكومة عن مركزها، فنقول حينئذ أن من حقه تعيين حكومة جديدة يختارها بنفسه، تلبّي أهدافه وتستمع الى مطالبه.

كانت ثورة خمسة وثلاثين للهجرة أولى الثورات في تاريخ الأمة الاسلامية، وكانت هي المرة الأولى التي يتحمّل فيها الشعب مسؤولية إختيار الحكومة، وهي مسؤولية

جسيمة تتطلب الوعي التام، وإلا أودى الشعب بنفسه في فتن وثورات لا نهاية لها. فالحكومات السابقة كان يتم الإتفاق على رأسها من خلال فئة قليلة من الصحابة ، ثم كانت تفرض رأيها على بقية الناس، فلم يكن لأحد أن يرفض أو يتماهل.

ولكن ثورة خمسة وثلاثين أعطت أمر تعيين الحكومة لإختيار الشعب مباشرة، فكان عليه أن يختار لنفسه، وقد فعل وأحسن الإختيار، إختار الحكومة التي اقتنع أنها مخلصة له ومحققة لأهدافه، اختار الحكومة التي لو خُلّي وشأنه منذ تأسيس اول حكومة لما اختار عنها بدلا، لقد إختار «عليّ بن ابي طالب».

يحدّث التاريخ عن هذه الفترة:«ونهض رجل من المصريين يقول: يا أهل المدينة، إنكم أهل الشورى وأنتم تعتقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلا تنصبونه. فتعالت الهتافات من كل صوب عليّ، عليّ بن ابي طالب نحن به راضون». واعتلى الصحابي الزّبير المنبر وقال: ايها الناس: ان الله قد رضي لكم الشورى فاذهَب بها الهوى، وقد تشاورنا فرضينا عليّا فبايعوه.

ونهض صحابي آخر -وهو عمار بن ياسر - يقول: أيها الناس إن عليّا أولى الناس بهذا الأمر لفضله وسابقته.

فعلَت الأصوات من كل مكان: قد رضينا به، قد رضينا به. وعاد عمّار ثانية يقول: أيها الناس إن عليّا مَن قد علمتم، وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به. وعاد الناس يصيحون: قد رضينا، وهو على ما ذكرتم وأفضل.

ومضت تلك الحشود الى دار عليّ بن ابي طالب وهو معتزل فيه، فأحاطت بالدّار حتى خرج إليهم، فعرضوا عليه البيعة، فرفض، وأصروا عليه فرض، وتوسلوا اليه فرفض. وقام أحد كبارهم- الأشتر- يقول له: ننشدك الله، الا ترى ما نرى؟ ألا ترى ما حدث في الإسلام؟ الا ترى الفتنة؟ الا تخاف الله؟ وساد الصمت، أي شيء يمكن أن يقولونه أكثر من هذا، كيف يمكنهم بعد هذا الكلام إقناع رجلهم العظيم، فنظر إلى العيون المتعلقة به، إلى الايادي الممتدة اليه، وقال: قد أجبتكم.

ويحدّث الإمام عليه السّلام عن فترة إلتفاف الناس حوله لمبايعته، فيقول:

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ (١) عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا.(خطبة ١٣٧)

(١) المطَافيل: جمع مُطْفِل: ذات الطفل من الانس والوحش.

ومن كلام له عليه السلام كلّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة، وقد عتبا من ترك مشورتهما، والاستعانة في الامور بهما:

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ، وَلاَ فِي الْوِلاَيَةِ إِرْبَةٌ (١) وَلكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا. (خطبة ٢٠٥)

فالإمام عليه السّلام يحدّث كما حدّث التاريخ، هم يريدونه للخلافة وهو يرفض، وكان بالفعل يتمنى أن يعفيه الناس، ولكنهم لم يفعلوا، فكان لزاماً عليه الرضوخ عند رغبتهم. والسؤال هنا: لماذا كان الإمام عليه السّلام لا يريد الخلافة؟ والجواب نأخذه منه نفسه عندما أراد الناس مبايعته:

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي، فإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ (٢) وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ (٣) وَالْمَحَجَّةَ (٤) قَدْ تَنَكَّرَتْ (٥) .(خطبة ٩١)

(١) الارْبة بكسر الهمزة: الغرض والطلبة.

(٢) لا تثبت عليه العقول: لا تصبر له ولا تُطيق احتماله

(٣) أغَامَتْ: غُطّيَتْ بالغيم.

(٤) المَحَجّة: الطريق المستقيمة

(٥) تنكّرت: تغيرت

وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً.(خطبة ٩١)

إذن فالإمام عليه السّلام عندما يرفض قبول الخلافة، فليس ذلك لمجرد الزهد، بل هناك سبب أهم وراء ذلك، وهو أن المفاهيم في عهد عثمان كانت قد قُلبت رأسا على عقب، والأوضاع بمجملها قد فسدت، فكان على الإمام عليه السّلام- إذا ما تولى الخلافة- أن يصحّح تلك المفاهيم، ويغيّر تلك الأوضاع، وهذا لم يكن بالأمر السهل، لأن الفئة المستفيدة من بقاء الأمور على حالها لم تكن لترضى بشكل من الأشكال أن تُضرب مصالحها بهذه السهولة، بل المتوقع أن تقف في وجه كل حركة يقوم بها للإصلاح، ويصبح من واجب الإمام عليه السّلام حينئذ ضرب هذه الفئة حتى تعود الى الطريق الحقّ وهو ليس بالأمر الهيّن. فالإمام عليه السّلام كان يرفض الخلافة حتى لا يضطر الى مجابهة هذه الفئة، ولكن الناس حملوه على قبولها، فكان عليه أن يتحمّل ما كان يخشاه.

مداحض ومزالق

قال الإمام عليه السّلام ذات مرة، والارجح أنها كانت في آخر مدة ولايته:

لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هذِهِ الْمَدَاحِضِ (١) لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ.(حكمة ٢٦٣)

وهنا نريد الوقوف عند نقطتين: الأولى: في معرفة الأشياء التي كان الإمام عليه السّلام يريد تغييرها. والثانية: في ذكر المداحض التي يعنيها بكلامه.

أما بالنسبة للنقطة الأولى فنقول: في عهد عثمان فسدت أمور المسلمين بشكل جارح، وأصبح التهافت على جمع الأموال أمراً مألوفاً لدى الجميع حتى ولو كان من غير طرقه الشرعية، وكل ذلك سببه الخليفة، حيث منع أناسا ما يستحقونه من العطاء، ليمنحه الى آخرين، وكانت هباته الى المقرّبين لديه أكثر من أن تحصى، وهذا ما جعل المجتمع فرقتين، فرقة قد أبطرتها النعمة، وفرقة قد أعياها الفقر، فالقسم الأول يعيش في رفاهية وهناء، بينما القسم الآخر في بؤس وشقاء، وقد أوضح عليه السّلام هذا الأمر بقوله:

(١) المَدَاحِض: المَزَالِقُ، يريد بها الفتن التي ثارت عليه.

اضْـرِبْ بِطَرْفِـكَ حَيْـثُ شِـئْتَ مِـنَ النَّـاسِ، فَهَـلْ تُبْصِـرُ إِلاَّ فَقِيـراً يُكَابِـدُ فَقْـراً، أَوْ غَنِيّـاً بَـدَّلَ نِعْمَـةَ اللـهِ كُفْـراً، أَوْ بَخِيـلاً اتَّخَـذَ الْبُخْـلَ بِحَـقِّ اللـهِ وَفْـراً، أَوْ مُتَمَـرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِـهِ عَـنْ سَـمْعِ الْمَوَاعِـظِ وَقْراً!.(خطبـة ١٢٩)

وهـذا الوضـع الفاسـد كان مـن جملـة الأشـياء التـي أراد عليـه السّـلام تغييرها. كمـا انّ منصـب القضـاء، الـذي هـو مـن أهم مناصـب الدولـة وأشـدها حساسـية، أصبـح علـى عهـد الخليفـة الثالـث بأيـدي جماعـة من النـاس لا تعرف من قوانين الاسـلام شـيئا، فـلا يمنعهـا دينهـا ولا ضميرهـا مـن الحكـم بغيـر الحـق اذا إقتضـت المصالـح الخاصـة ذلـك، جهـاز القضـاء بمجملـه كان الإمـام عليـه السّـلام يريـد تغييـره.

ومـن الأمـور التـي أراد الإمـام عليـه السّـلام تغييرهـا، هـو جهـاز الدولـة الإسـلامية المتمثـل بالـولاة، وفسـاد هـذا الجهـاز كان مـن أهـم الأسـباب التـي أدّت إلـى الثـورة علـى عثمـان، لـذا كان لا بـدّ مـن البـدء بتبديلـه.

وأمـا بالنسـبة للنقطـة الثانيـة فنقـول: لقـد سـبق وقدّمنـا أن عثمـان قـد تـرك الأمـة الإسـلامية فـي حالة يرثـى لهـا، فكانت الأوضـاع قـد بلغـت حـداً مـن الفسـاد لا يمكـن أن تتعـداه، فقـام عليـه السّـلام يريـد الإصـلاح ولكـن واجهتـه عقبـات، متمثّلـة فـي ثـلاث فئـات مـن النـاس ذكرهـا الإمـام عليـه السّـلام فـي

خطبتـه الشقشـقية حيـث يقـول:

فَلَمَّـا نَهَضْـتُ بِالأَمْـرِ نَكَثَـتْ طَائِفَـةٌ (١) وَمَرَقَـتْ أُخْـرَى (٢) وَفَسَـقَ وقسـط (٣) آخَرُونَ.(خطبة ٣)

فالمداحـض التـي يذكرهـا الإمـام عليـه السّـلام كانـت بسـبب هـذه الفئـات الثـلاث، فكانـت فتـرة خلافتـه عبـارة عـن حـرب مسـتمرة معهـم، فلـم يسـتطع التفـرّغ لإعـادة بنـاء المجتمـع الإسـلامي كمـا يريـده وكمـا كان علـى عهـد النبـيّ والخليفتيـن مـن بعـده، ويحـدّث عليه السّـلام عـن قتاله لهـذه الفئـات بقولـه:

أَلاَ وَقَـدْ أَمَرَنِـيَ اللـهُ بِقِتَـالِ أَهْـلِ الْبَغْـيِ وَالْنَّكْـثِ وَالْفَسَـادِ فِـي الأَرْضِ، فَأَمَّـا النَّاكِثُـونَ فَقَـدْ قَاتَلْـتُ، وَأَمَّـا الْقَاسِـطُونَ فَقَـدْ جَاهَـدْتُ، وَأَمَّـا الْمَارِقَـةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ.(خطبـة ١٩٢)

فقتـال هـؤلاء هـو أمـر مـن اللـه لعلـيّ بـن ابـي طالـب، بلّغـه إيـاه النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم، وفـي شـرح نهـج البلاغـة: انّ النبـي صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم قـال لعلـيّ عليـه

(١) نَكَثَتْ طَائفة: نَقَضَتْ عهدَها، وأراد بتلك الطائفة الناكثة أصحابَ الجمل وطلحةَ والزبيرَ خاصة.

(٢) مَرَقَتْ: خَرَجَتْ، وفي المعنى الديني: فَسَقَتْ، وأراد بتلك الطائفة المارقة الخوارج أصحاب النّهْرَوَان.

(٣) قَسَطَ آخرون: جاروا، وأراد بالجائرين أصحاب صفين

السّـلام: سـتقاتل مـن بعـدي النـاكثيـن والقاسـطين والمارقيـن (١)، وقـد فعـل عليـه السّـلام .

وفـي الفصـول التاليـة سـيكون حديثنـا عـن كل فئـة مـن هـذه الفئـات علـى حدة، فنبـدأ بالنـاكثيـن، ونثني بالقاسـطين، ونـنتهي بالمارقيـن، وكل ذلـك بمـا نسـتفيده مـن نهـج الحـق، نهـج عليّ بـن ابـي طالـب، نهـج البلاغـة.

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٢٠١

الفصل الثّامن:

النّاكثون

النّاكثون، وهم أصحاب الجمل، كانت قيادتهم تتمثل بثلاث شخصيات إسلامية مهمة، عائشة، - زوج النبي- طلحة والزّبير. هؤلاء الثلاثة نقضوا بيعة الإمام عليه السّلام بعد إبرامها، وجمعوا حولهم أناسا كثيرين، وكانت نهايتهم في وقعة الجمل الشهيرة. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة كانت له دوافع ومبررات للوقوف في وجه الإمام عليه السّلام، وفي الفقرات التالية سنحاول استكشافها، فنتحدث: أولا: عن موقف عائشة. ثانيا: عن موقف طلحة. وثالثا: عن موقف الزّبير.

موقف عائشة

قال ابن ابي الحديد: إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين اليها:«هذا ثوب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يبلَ وعثمان قد أبلى سنَّته »وكانت تقول:

«اقتلـوا نعثـلاً (١)، قتـل اللـه نعثـلاً، وهـي أول مـن سـمى عثمـان بذلـك» (٢)

فتحريـض عائشـة علـى عثمـان كان بشـكل علنـي وسـاخر، حتـى أنهـا لمـا بلغهـا مقتلـه وهـي بالكوفـة قالـت: «أبعـده الله، وذلـك بمـا قدمـت يـداه، ومـا اللـه بظـلام للعبيـد».

وفـي كتـاب للإمـام الـى أهـل الكوفـة يوضـح عليـه السّـلام موقـف عائشـة بقولـه:

وَكَانَ مِـنْ عَائِشَـةَ فِيـهِ فَلْتَـةُ غَضَـب، فَأُتِيـحَ لَـهُ قَـوْمٌ فَقَتَلُـوهُ.

(كتاب ١)

ولكـن مـا ان قُتـل عثمـان حتـى كانـت عائشـة أول المطالبيـن بدمـه مدّعيـة أنـه مـات مظلومـا، فمـا السـر فـي ذلـك؟

عائشـة - أم المؤمنيـن- لـم يكـن لهـا أي حقـد أو ضغينـة علـى عثمـان سـوى أنـه يتولـى منصب الخلافـة، هـذا المنصب الذي أرادتـه أن يعـود تَيميّـا كمـا كان، ويتـولاه طلحـة التّيمـي، وهي لـم تسـتطع ان تخفـي هـذا الـذي فـي نفسـها، ويخبرنـا عنـه إبـن ابـي الحديـد حيـث يقـول: لمـا قُتـل عثمـان كانـت عائشـة بمكـة، وبلـغ قتلـه اليهـا وهـي بشـراف فلـم تشـك فـي ان طلحة هـو صاحـب الأمـر، وقالـت: بعـداً لنعثـل وسـحقا،

(١) النعثل: كثير شعر اللحية والجسد.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٢١٥

إيـه ذا الإصبـع، إيـه ابـا شـبل، إيـه يـا ابـن عـم، لكأنـي أنظـر الـى إصبعـه وهـو يُبايَـع لـه، حثّـوا الإبـل ودعدعوهـا (١).

وروى أيضـا أنهـا قالـت حيـن بلغهـا مقتلـه: أبعـده اللـه قتلـه ذنبـه، وأقـاده اللـه بعملـه، يـا معشـر قريـش لا يسـومنكم قتـل عثمـان، كمـا سـام أحمـر ثمـود قومـه، إن أحـق النـاس بهـذا الأمـر ذو الإصبـع- أي طلحـة - فلمـا جـاءت الأخبـار ببيعـة علـيّ عليـه السّـلام قالـت: تعسـوا، تعسـوا، لا يـردوّن الأمـر فـي تيـم أبـداً.

فعائشـة إذاً لـم تكـن تنقـم علـى عثمـان لكونـه غيـر عـادل - كمـا كانـت تدّعـي - بـل كل مـا فـي الأمـر إنهـا كانـت تريـد الخلافـة لطلحـة التيمـي.

ولكـن جاءهـا النبـأ الصاعـق بإسـتخلاف علـيَ عليـه السّـلام، أولـم يكفهـم أنهـم لـم يبايعـوا طلحـة حتـى بايعـوا عليـا؟ ان لا ينصّبـوا طلحـة، فهـو أمـر مؤسـف ومهّـدم للأمانـي والأحلام، ولكـن أن يختـاروا عليـا فهـذا أمـر لا يمكـن السـكوت عنـه بحـال. ونتـرك الحديـث لابـن أبـي الحديـد يخبرنـا عمـا فعلتـه وقالتـه عائشـة عنـد وصـول الخبـر اليهـا، قـال:

«إن عائشـة لمـا بلغهـا قتـل عثمـان وهـي بمكـة أقبلت مسـرعة وهـي تقـول: إيـه ذا الإصبـع للـه أبوك، أمـا إنهم وجـدوا طلحة

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٢١٥

لهـا كفـوا». فلمـا انتهـت الـى شـراف، إسـتقبلها عبيـد بـن أبـي سـلمة الليثـيَ، فقالـت له:«مـا عنـدك؟ قـال: قتـل عثمـان. قالت: ثـم مـاذا؟ قـال: ثـم حـرت بهـم الأمـور الى خيـر محـار، بايعوا عليـاً. فقالـت: لـوددت أن السـماء إنطبقـت علـى الأرض ان تـمّ هـذا. ويحـك، أنظـر مـا تقـول، قـال: هـو مـا قلـت لـك يـا أم المؤمنيـن، فولولـت، فقـال لهـا مـا شـأنك يـا أم المؤمنيـن، واللـه مـا أعـرف بيـن لأبتيهـا أحـدا أولـى بهـا منـه ولا أحـق ولا أرى نظيـرا فـي جميـع حالاتـه، فلمـاذا تكرهيـن ولايتـه قـال: فمـا ردّت جوابـا» (١)

وكنـا نكتفـي بهـذه الروايـة لنفهـم حقيقـة موقـف عائشـة مـن عثمـان، ولكـن هنـاك ملاحظـة نريـد إيرادهـا بعـد قليـل، لذلـك سـنذكر روايـة أخـرى فـي الموضـوع، ونأخذهـا أيضـا مـن شـرح إبـن أبـي الحديـد، قـال:

روى ابـن أبـي حـازم، إنـه حـج فـي العـام الـذي قتـل فيـه عثمـان، وكان مـع عائشـة لمـا بلغهـا قتلـه، فسـمعها تقـول فـي بعـض الطريـق: إيـه ذا الاصبـع، وإذا ذكـرت عثمـان قالـت: أبعـده اللـه، حتـى أتاهـا خبر بيعـة الإمام عليـه السّـلام، فقالت: لـوددت ان هـذه وقعـت علـى هـذه... ثـم أمـرت بـردّ ركائبهـا الـى مكـة فـردت معهـا، ورأيتهـا فـي سـيرها الـى مكـة تخاطب نفسـها، كانهـا تخاطـب أحـدا: قتلـوا ابـن عفـان مظلومـا. فقلـت

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٢١٦

لهـا: يـا أم المؤمنيـن ألـم أسـمعك آنفـا تقولـين: أبعـده اللـه! وقد رأيتـك قبـلُ أشـد النـاس عليـه وأقبحهـم فيـه قـولا، فقالـت: لقـد كان ذلـك، ولكنـي نظـرت فـي أمـره فرأيتهـم إسـتتابوه حتـى إذا تركـوه كالفضـة البيضـاء أتـوه صائمـا محرمـا فـى شـهر حـرام فقتلـوه (١).

والملاحظـة التـي نريـد تسـجيلها هنـا، أن المسـلمين فـي تلـك الايـام قـد فهمـوا الحقائـق التـي أوردناهـا عـن موقـف عائشـة، فنـرى فـي الروايتيـن المختلفتيـن ان الراوييـن يتعمّـدان ذكـر تحريـض عائشـة علـى عثمـان، ثـم أمَلهـا فـي ان يكـون طلحـة هـو الخليفـة، ثـم إسـتنكارها الشـديد علـى إسـتخلاف علـيّ، فقامـت للمطالبـة بـدم عثمـان، فهـي حتـى لـو تغاضـت عـن عـدم وصـول الخلافـة الـى طلحـة، فإنها لن تسـتطيع السـكوت علـى إسـتخلاف علـيّ، ولـذا ثـارت عليـه بدافـع حقـد قديـم تحملـه فـي نفسـها، وهـو أمـر يدركـه عليـه السّـلام بوضـوح فنـراه يقـول:

وَأَمَّـا فُلاَنَـةُ، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ الْنِّسَـاءِ، وَضِغْنٌ غَـلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَـلِ (٢) الْقَيْـنِ (٣) وَلَـوْ دُعِيَـتْ لِتَنَالَ مِـنْ غَيْرِي مَا

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٢١٦

(٢) المِرْجَل: القِدْر.

(٣) القَيْن بالفتح: الحداد.

أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ.(خطبة ١٥٦)

والحقد الذي كانت تحمله عائشة على الإمام عليه السّلام له اسبابه من وجهة نظرها، ولعل أهمها على الإطلاق، إشارة عليّ عليه السّلام على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بطلاقها عندما قُذفت، ثم مكانة علي عليه السّلام المرموقة في قلب النبي دون أبيها، ومكانة زوجته فاطمة من قِبَله دونها، والى ما شابه ذلك، وفوق هذا جاءت قصة إستخلافه دون ابن عمها طلحة.

وعندما جاءها كتاب طلحة والزبير: «ان خَذِّلي الناس عن بيعة عليّ، وأظهري الطلب بدم عثمان» كانت فرصتها المناسبة فاستغلّتها.

موقف طلحة

وأما طلحة - الرّكن الثاني من أركان الناكثين- فإن موقفه من عثمان لم يكن ليختلف عن موقف عائشة، والذي قد نستفيده من تتابع الأحداث أنه كان بينهما إتفاق مُسبق على كل ما جرى، ذلك للتشابه التام في تصرفات كل منهما، فطلحة كان من أشد المحرّضين على عثمان، لذلك نجد الإمام عليه السّلام - كما في تاريخ الطبري - يقول لطلحة وعثمان محصور: أنشدك الله ألا رددت الناس عن

عثمـان، فيجيبـه طلحـة:«لا واللـه حتـى تعطـي بنـو أميـة الحقّ مـن نفسـها».

وروى أيضـا أن عليّـا كان فـي خيبـر حيـن حصـر عثمـان، وعندمـا قـدم طلـب منـه عثمـان أن يكلم طلحة في فـك الحصار عنـه، فكلمـه ولكـن طلحـة رفـض، وعندمـا قتـل عثمـان منـع مـن دفنـه ثلاثـة ايـام. والإمـام عليه السّـلام يعلن عن مسـؤولية طلحـة بـن عبيـد اللـه واشـتراكه فـي قتـل عثمـان لـذا يقـول فـي حقـه حيـن بلغـه خروجـه والزبيـر إلـى البصـرة لقتالـه:

وَاللـهِ مَـا اسْـتَعْجَلَ مُتَجَـرِّداً (١) لِلطَّلَبِ بِـدَمِ عُثْمـانَ إِلاَّ خَوْفاً مِـنْ أَنْ يُطَالَـبَ بِدَمِـهِ، لاَنَّـهُ مَظِنَّتُـهُ، وَلَـمْ يَكُـنْ فِـي الْقَـومِ أَحْـرَصُ عَلَيْـهِ مِنْـهُ، فَـأَرَادَ أَنْ يُغَالِـطَ بِمَـا أَجْلَـبَ فِيـهِ لِيَلْتَبِسَ الأَمْـرُ وَيَقَـعَ الشَّـكُّ.(خطبة ١٧٤)

فهـذه أولـى النقـاط التـي كان يشـترك فيهـا طلحـة وعائشـة وهـي التحريـض علـى عثمـان.

وأمـا النقطـة الثانيـة فهـي سـعي طلحـة للخلافـة، وكان هـذا المبـرّر الوحيـد الـذي دعـى طلحـة للتحريـض علـى عثمـان.

قـال إبـن أبـي الحديـد:

كان طلحة قد أجهد نفسه في أمر عثمان والإجلاب عليه،

(١) مُتَجَرّداً: كأنه سيف تجرد من غمده.

والحصر له والإغراء به، ومنّته نفسه بالخلافة، بل تلَبّس بها وتسّلم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها، وقابل الناس وأحدقوا به، ولم يبق إلا ان يصفق بالخلافة على يده (١)

وقد اتجهت أنظار طلحة نحو الخلافة وطمع بها، منذ ذلك اليوم الذي جعله فيه عمر أحد أفراد الشورى الستة، وعندما رأى نقمة الناس على عثمان، عرف أن هذه فرصته العظيمة وربما الوحيدة وخاصة أنه قد أتيح له سند قوي يدعمه في مبتغاه ، عائشة أم المؤمنين..

روى الطبري عن إبن عباس انه قال:

لما حججت بالنيابة عن عثمان وهو محصور، مررت بعائشة بالصلصل، فقالت: يا بن عباس أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانا وعقلا أن تخذل الناس عن طلحة، فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وأنهجت، ورفعت لهم المنار وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمّ، وإن طلحة فيما بلغني قد إتخذ رجالا على بيوت الأموال وأخذ مفاتيح الخزائن، وأظنه يسير إن شاء الله بسيرة إبن عمه أبي بكر. فقال: يا أماه، لو حدث بالرجل حدث ما، فزع الناس الى صاحبنا. فقالت: أيها عنك يا بن عباس إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك. وبالطبع فابن عباس ليس هو الرجل الوحيد الذي خاطبته عائشة لمناصرة طلحة.

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٠ - ص ٥

وأمـا النقطـة الثالثـة التـي يتشـابه بهـا تصرف عائشـة وطلحة، فهـي إنهمـا بعـد أن فشـلا فـي تحقيـق هدفهمـا أعلنـا المطالبـة بـدم عثمـان، وجعـلاه غطـاءً لهمـا لتحقيـق خطوتهمـا التاليـة، وهـي إفسـاد أمـر الخلافـة علـى الإمـام عليـه السّـلام.

موقف الزُّبير

موقـف الزبيـر لـم يكـن يختلـف كثيـرا عـن موقـف رفيقيـه، فهـو أيضـا كان مـن المحرّضيـن علـى عثمـان طمعـاً فـي أن تـؤول الخلافـة اليـه بعـد مقتلـه، وعندمـا رأى ان الأمـر قـد خـرج مـن يـده هـبّ مطالبـا بدمـه.

فالهـدف المشـترك بيـن الثلاثـة هـو نقـض بيعـة الإمـام عليـه السّـلام كخطـوة أولـى، ويوضـح عليـه السّـلام هـذا الأمـر بقولـه:

إِنَّ هـؤُلاَءِ قَـدْ تَمَـالأُوا (١) عَلَـى سَـخْطَةِ (٢) إِمَارَتِـى، وَسَـأَصْبِرُ مَـا لَـمْ أَخَـفْ عَلَـى جَمَاعَتِكُـمْ، فَإِنَّهُـمْ إِنْ تَمَّمُـوا عَلَـى فَيَالَـةِ هـذَا الـرَّأْي (٣) انْقَطَـعَ نِظَـامُ الْمُسْـلِمِينَ، وَإِنَّمَـا طَلَبُـوا هـذِهِ الدُّنْيَـا حَسَـداً لِمَـنْ أَفَاءَهَـا اللـهُ عَلَيْهِ (٤) فَـأَرَادُوا

(١) تمالأُوا: اتفقوا وتعاونوا.

(٢) السّخْطة بالفتح: الكراهة والبغض.

(٣) فَيَالةِ الرأي بالفتح: ضَعْفه.

(٤) أفاءها عليه: أرجعها إليه.

رَدَّ الأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا.(خطبة ١٦٩)

ولو تمّ لهم تحقيق هذا الأمر لكان لهم مع بعضهم البعض خلاف ونزاع، وذلك لأن كل واحد منهم له هدف من نقض بيعة الإمام عليه السّلام. أما عائشة فهدفها الأول نقض البيعة في نفسها، والهدف الآخر الذي يلحق بهذا هو تنصيب طلحة. ولكن طلحة والزبير كان كل واحد منهما يريد الأمر لنفسه ولا يتنازل عنه للآخر.

وبطبيعة الحال لم يغب هذا الأمر عن ذهن الإمام عليه السّلام فكان يقول:

كُلُّ وَاحِد مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّانِ (١) إِلَى اللهِ بِحَبْل، وَلاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بَسَبَب (٢) كُلُّ واحِد مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ (٣) لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيل يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هذَا عَلَى هذَا.

(خطبة ١٤٨)

(١) لا يَمُتّان: لا يمدّان

(٢) السبب: الحبل.

(٣) الضّبّ بالفتح ويكسر: الحقد، والعرب تضرب المثل بالضبّ في العقوق.

والـذي حـدس بـه الإمـام عليـه السّـلام كان سـيتحقق بـلا شـك، ولدينـا الشـاهد علـى ذلـك، قـال ابـن ابـي الحديـد: كان عبدالله بـن الزبيـر هـو الـذي يصلـي بالنـاس فـي أيـام الجمـل، لأن طلحـة والزبيـر تدافعـا للصـلاة، فأمـرت عائشـة عبـد اللـه ان يصلـي قطعـا لمنازعتهمـا. (١)

فـإذا كانـا يتدافعـان للصلاة فكيـف الأمر حين تنحصـر الخلافة بهمـا! وعلـى أيـة حـال فتقديـم أحدهمـا للصـلاة يعتبـر مؤشـرا علـى تقديمـه للخلافة.

محاولة مساومة عليّ

لمـا رأى طلحـة والزبيـر إنثيـال النـاس علـى عليّ عليه السّـلام يبايعونـه، علِمـا أنـه مـن خطـل الـرأي أن يحاولا بعـد ذلك جرّ الأمـر نحوهمـا، فـكان لا بـدّ مـن تبديـل الخطـة، وسـرعان مـا وجـدا الخطـة البديلـة، فمـا لا يُـدرك بتمامـه لا يُتـرك بتمامـه، فـلا أقـل مـن أن يكونـا شـريكين فـي الخلافـة بعـد ان لـم يتمكنا مـن الاسـتقلال بهـا فجـاءا الـى الإمـام عليـه السّـلام ليطرحـا هـذا الأمـر وقالا:

نبايعك على أَنّا شركاؤُكَ في هذا الاَمر. فقال: لاَ، وَلكِنَّكُمَا

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ١٦٦

شَـرِيكَانِ فِـي الْقُـوَّةَ وَالإِسْـتَعَانَةِ، وَعَوْنَـانِ عَلَـى الْعَجْـزِ وَالأَوَدِ (١).(حكمـة ١٩٢)

وكان لا بـد لهمـا مـن أن يبايعـا كمـا يريـد الإمـام عليـه السّـلام لا كمـا إشـترطا، اذ أدركا ان معارضتهمـا لـن تجـدي شـيئا. وفـي هـذه الأثنـاء كان عليا عليه السّـلام قد أرسـل الـى معاوية يأمـره بأخـذ البيعـة لـه مـن أهـل الشـام، وكان معاويـة قد سـمع عـن الإمـام عليـه السّـلام قولـه فيمـا أقطعـه عثمـان:

وَاللـهِ لَـوْ وَجَدْتُـهُ قَـدْ تُـزُوِّجَ بِـهِ النِّسَـاءُ، وَمُلِـكَ بِـهِ الاْمَـاءُ، لَرَدَدْتُـهُ، فَـإِنَّ فـي العَـدْلِ سَـعَةً، وَمَـنْ ضَـاقَ عَلَيْـهِ العَـدْلُ، فَالجَـوْرُ عَلَيْـهِ أَضيَقُ.(خطبـة ١٥)

وهـو ليـس غبيـاً عـن شـدة الإمـام عليـه السّـلام وصرامتـه فـي الحـق، وانـه ان قـال فعـل وفـوق ذلـك أتـاه كتـاب عمـرو بـن العـاص يقـول فيـه: أمـا بعـد، مـا كنـت صانـع فاصنـع، إذ قشـرك ابـن ابـي طالـب مـن كل مـال تملكـه، كمـا تقشـر مـن العصـا لحاهـا.

ولـم يكـن معاويـة يحتـاج الـى المزيـد ليفهـم ويـدرك، فكتـب الـى الزبيـر يقـول: أمـا بعـد، فإنـي قـد بايعـت لـك أهـل الشـام فأجابـوا وإستوسـقوا كمـا يستوسـق الجلـب، فدونـك الكوفـة

(١) الاوَد: بُلوُغ الامر من الانسان مجهوده لشدّته وصعوبة احتماله.

والبصـرة، لا يسـبقك اليهـا ابـن ابـي طالـب، فإنـه لا شـيئ بعـد هذيـن المصريـن، وقـد بايعـت لطلحـة بـن عبيـد اللـه مـن بعـدك، فأظهـرا الطلـب بـدم عثمـان، أظفركمـا اللـه وخـذل مناوئكمـا (١)

هنـا عـاد الأمـل يدغدغ قلبيهمـا، فمعاوية قد ضمن لهما الشـام، ومـا عليهمـا إلا محاولـة السـيطرة علـى الكوفـة والبصـرة، وأيسـر الطـرق لهـذا الأمـر أن يطلبـا مـن الإمـام عليـه السّـلام توليتهمـا علـى هذيـن المصرين، فأجابهمـا عليه السّـلام بقوله: «حتـى أنظـر» (٢)

فهـو كان يرتـاب فـي أمرهمـا، ثـم جـاء ابـن عبـاس ليؤكـد إرتيابـه إذ قـال لـه عنـد إستشـارته: إن الكوفـة والبصـرة عيـن الخلافـة، وبهمـا كنـوز الرجـال، ومـكان طلحـة والزبيـر مـن الإسـلام مـا قـد علمـت، ولسـت آمـنُ أن ولّيتهمـا ان يُحدثـا أمـراً.

وبعـد ان رأى طلحـة والزبيـر ان الإمـام عليـه السّـلام رفـض طلبهمـا أخـذا فـي تحريـض النـاس عليـه، وإظهـار كراهيتهمـا لخلافتـه، فدعاهمـا الإمـام عليـه السّـلام اليـه وقـال لهمـا:

لَقَدْ نَقَمْتُما يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً، أَلاَ تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْء

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٢٣١

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٢٣٣

لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ وأَيُّ قَسْم اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ.(خطبة ٢٠٥)

وعندما تيقَّنا أن مساومة الإمام عليه السّلام في دينه غير ممكنة أتياه يطلبان السّماح لهما بالعمرة، فقال لهما عليه السّلام وقد أدرك مرادهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث العهد. فحلفا له أنهما لا يريدان غير العمرة، فأمرهما أن يعيدا البيعة ثانية، ففعلا، ولكن ما إن خرجا من المدينة قاصدين مكة حتى نكثا البيعة، وادَّعيا أنهما إنما بايعا مكرهين، وفي هذا يقول عليه السّلام:

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ، وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالبَيْعَةِ، وَادَّعَى الوَلِيجَةَ (١) فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْر يُعْرَفُ، وَإِلاَّ فَلْيَدخُلْ فِيَمَا خَرَجَ مِنْهُ.(خطبة ٨)

ويقول فيهما معا، في كتاب لهما:

فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمانِي طَائِعَيْنِ، فارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيب، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ (٢) بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ.(كتاب ٥٤)

(١) الوَلِيجة: الدّخيلة وما يُضمر في القلب ويكتم.

(٢) جعلتما لي عليكما السبيل: أي الحجّة.

إجتماع النّاكثين

في مكة المكرّمة إجتمع أقطاب حركة الناكثين الثلاثة، عائشة، طلحة والزبير. وبدأ الحوار بين هؤلاء الثلاثة عن أفضل الطرق التي تمكنهم من التوصل الى هدفهم - وهو نقض بيعة الإمام عليه السّلام - إذ لا بدّ من حجة يتمسكون بها تخوِّلهم محاربة الخليفة. عثمان مثلا كان المبرر لنقض بيعته هو فساده، ولكن أي شيء ينقضون به على علي بن ابي طالب؟

مفتاح الحل كان معاوية، فقد سبق وذكرنا كتابه الى ابن الزبير يشير عليه أن يقوم بالمطالبة بدم عثمان، فتقرر في هذا الإجتماع الأخذ بمشورة معاوية، وبحملهم هذا الشعار كانوا أيضا يحصّنون أنفسهم فيما لو قام غيرهم بالمطالبة بدم عثمان، وخاصة طلحة فإنه كان من أشدّ المحرّضين على عثمان وسيكون هو أول المُطالبين بدمه، ولكن الإمام عليه السّلام قد فضح هذا الأمر عندما يقول متحدثا عن طلحة:

وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لاَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَومِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ

الأَمْـرُ وَيَقَـعَ الشَّـكُّ.(خطبة ١٧٤)

وَوَاللـهِ مَـا صَنَـعَ فِـي أَمْـرِ عُثْمـانَ وَاحِـدَةً مِـنْ ثَـلاَث: لَئِـنْ كَانَ ابْـنُ عَفَّـانَ ظَالِمـاً كَمَـا كَانَ يَزْعُـمُ لَقَـدْ كَانَ يَنْبَغِـي لَـهُ أَنْ يُـوَازِرَ قَاتِلِيـهِ وَأَنْ يُنَابِذَ (١) نَاصِرِيهِ، وَلَئِـنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِـي لَـهُ أَنْ يَكُـونَ مِـنَ المُنَهْنِهِينَ (٢) عَنْـهُ وَالْمُعَذِّرِينَ فِيـهِ (٣) وَلَئِـنْ كَانَ فِـي شَـكّ مِـنَ الْخَصْلَتَيْـنِ، لَقَـدْ كَانَ يَنْبَغِي لَـهُ أَنْ يَعْتَزِلَـهُ وَيَرْكُـدَ جَانِبـاً وَيَـدَعَ النَّـاسَ مَعَـهُ، فَمَـا فَعَـلَ وَاحِـدَةً مِـنَ الثَّـلاَثِ، وَجَـاءَ بِأَمْـر لَـمْ يُعْـرَفْ بَابُـهُ، وَلَمْ تَسْـلَمْ مَعَاذِيرُهُ.(خطبة ١٧٤)

الـذي جـاء بـه طلحـة، كان أن حمـل راية المطالبة بـدم عثمان، وممـن؟ مـن الخليفـة الشـرعي، مـن الشـخص الـذي هـو أبـرأ النـاس مـن دمـه. وهكـذا أخـذ الثلاثـة يكيلـون الإتهامـات الـى ابـن ابـي طالـب بأنـه المسـؤول عـن دم عثمـان، والإمـام عليـه السّـلام بطبيعـة الحـال لـم يسـكت عـن ذلـك بـل ردّ الاتهـام الـى نحورهـم وأوضـح هدفهـم مـن ذلـك. وهـا هنـا نقـاط أربـع يجـب الوقـوف عندهـا:

النقطة الأولى في قوله عليه السّلام:

(١) المنابذة: المراماة، والمراد المعارضة والمدافعة.

(٢) نهنهه عن الامر: كفّه وزجره عن إتيانه

(٣) المعذرين فيه: المعتذرين عنه فيما نقم منه.

وَاللــهِ مَــا أَنْكَـرُوا عَلَــيَّ مُنْكَـراً، وَلاَ جَعَلُـوا بَيْنِــي وَبَيْنَهُـمْ نَصِفـاً (١)، وَإِنَّهُـمْ لَيَطْلُبُـونَ حَقّـاً هُـمْ تَرَكُـوهُ، وَدَمـاً هُـمْ سَـفَكُوهُ.(خطبة ٢٢)

وفـي مـكان آخـر كتـب عليه السّـلام لأهـل الكوفـة كتابا يوضح مـا كان مـن أمـر عثمـان وجاء فـي جملته:

إِنَّ النَّـاسَ طَعَنُـوا عَلَيْـهِ، فَكُنْـتُ رَجُـلاً مِـنَ الْمُهَاجِرِيـنَ أُكْثِـرُ اسْـتِعْتَابَه وَأُقِـلُّ عِتَابَـهُ، وَكَانَ طَلْحَـةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَـيْرِهِمَا فِيـهِ الْوَجِيفُ (٢) وَأَرْفَـقُ حِدَائِهِمَـا (٣) الْعَنِيـفُ، وَكَانَ مِـنْ عَائِشَـةَ فِيـهِ فَلْتَـةُ غَضَـب، فَأُتِيـحَ لَـهُ قَـوْمٌ فَقَتَلُوهُ.(كتـاب ١)

فالإمــام عليــه السّــلام يتّهــم الثلاثــة بمســؤوليتهم عــن قتــل عثمـان، لأن القاتـل ليس هـو المنفِّذ فقط، فـربَّ كلمة تسبِّبت فـي مقتـل إنسـان، فيكـون قائلهـا مشـاركا فـي قتلـه، فكيـف اذا كان هنـاك تحريـض علنـي مباشـر علـى قتلـه كمـا كان مـن أمـر الثلاثـة فـي حـق عثمـان!. فعائشـة كانـت تقـول: أقتلـوا نعثـلا فقـد كفـر، والزبيـر كان يقول:«أقتلـوه فقـد بـدَّل دينـه، ان عثمـان لجيفـة علـى الصـراط غـدا».

(١) النّصِف بالكسر: المنصف، أي: لم يحكّموا رجلاً عادلاً بيني وبينهم.

(٢) الوَجِيف: ضرب من سير الخيل والابل سريع

(٣) الحِدَاء: زجل الابل وسَوْقها.

وأمـا طلحـة فقـد كان مـن أشـد النـاس تحريضـا عليـه حتـى روي انـه كان يـوم قتـل عثمـان مقنَّعـا بثـوب قـد أسـتتر بـه عـن أعيـن النـاس يرمـي الـدار بالسـهام. ويلخص عليه السّـلام نتيجـة موقـف الثلاثـة: «فأتيـح لـه قـوم فقتلـوه». فتحريضهـم هـو السـبب المباشـر لقتلـه، فهـم قتلتـه.

النقطة الثانية في قوله عليه السّلام:

وَإِنَّهُـمْ لَيَطْلُبُـونَ حَقّـاً هُـمْ تَرَكُـوهُ، وَدَمـاً هُـمْ سَـفَكُوهُ، فَلَئِـنْ كُنْـتُ شَـرِيكَهُمْ فِيـهِ فَـإِنَّ لَهُـمْ لَنَصِيبَهُـمْ مِنْـهُ، وَلَئِـنْ كَانُـوا وَلُـوهُ دُونـي، فَمَـا التَّبِعَـةُ إِلاَّ عِنْدَهُـمْ، وَإِنَّ أَعْظَـمَ حُجَّتِهِـمْ لَعَلَـى أَنْفُسِـهِمْ.(خطبة ٢٢)

فبعـد ان كان الإمـام عليـه السّـلام قـد أعاد الإتهـام اليهم ودعمه بالشـواهد، عـاد هنـا ليبطـل إحتجاجهـم عليـه ويعيـده اليهـم، لأن الاتهـام بقتـل عثمـان إمـا ان يتوجـه الـى الاربعـة - ومـن ضمنهـم الإمـام عليـه السّـلام - وإمـا الـى الثلاثة ويكـون الإمام عليـه السّـلام بريئـا مـن ذلـك. وأمـا أن يكـون الإمـام عليـه السّـلام وحـده مسـؤولا فذلـك ممـا لـم يدَّعِـه أحـد مـن النـاس.

فـان كان الإمـام عليـه السّـلام شـريكهم فـي دمه فلمـاذا يطلبون الحـق منـه اذ ان العقـاب الـذي سـوف ينالـه يجـب ان ينالوه هم أيضـا، وان كانـوا وحدهـم المسـؤولين فهـم وحدهـم المطالبون بدمـه، وعلـى أيـة حـال لا يحـق لهـم علـى الإمـام عليه السّـلام

شيء.

النقطة الثالثة، وهي في قول الإمام عليه السّلام:

أَلاَ وإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ (١) حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ لِيَعُودَ الجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ البِاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ (٢) ، .... يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ (٣) وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

(خطبة ٢٢)

فهنا يوضح الإمام عليه السّلام هدفهم من حمل شعار المطالبة بدم عثمان فواقعهم ليس كما يحاولون إظهاره من أنهم يريدون الاقتصاص من قتلة عثمان إحقاقا للحق، بل هدفهم شيء وراء ذلك، فإن الشيطان قائدهم وهو الذي يسيرهم، وأي شيء يريده الشيطان سوى إحياء الباطل وإماتة الحق؟ فهم عندما يقولون أن عثمان قد قتل مظلوما فمعناه انه لم يكن قد فعل شيئا يستحق القتل وهذا يعني رضاهم عن سيرته، فيكونون بمطالبتهم بدمه يطالبون باعادة سيرته، وهي بدعة قد أميتت.

(١) ذَمّرَ حِزْبَهُ: حثهم وحضّهم، وهو بالتشديد أدلّ على التكثير، ويروى مخففاً أيضاً من باب ضرب ونصر.

(٢) النِّصَاب بكسر النون: الاصل أوالمنبت وأول كل شيء.

(٣) أُمّاً قد فَطَمَتْ: أي تَركت إرضاع ولدها بعد أن ذهب لبنها، يشبّه به طلَب الامر بعد فواته.

وأمـا الأم التـي فطمت وجـفّ لبنها فهي الخلافـة التي أصبحت بيـد علـيّ عليـه السّـلام ولكنهمـا مـع ذلـك مـا زالا يطمحـان بها .

النقطـة الرابعـة فـي قولـه عليـه السّـلام مـن كتـاب لطلحـة والزّبيـر:

وَقَـدْ زَعَمْتُمـا أَنِّـي قَتَلْـتُ عُثْمـانَ، فَبَيْنِـي وَبَيْنَكُمَـا مَـنْ تَخَلَّـفَ عَنِّـي وَعَنْكُمَـا مِـنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ، ثُـمَّ يُلْـزَمُ كُلُّ امْـرِىءٍ بَقَـدْرِ مَـا احْتَمَلَ.(كتاب ٥٤)

وذلـك نهايـة المطـاف، فالإمـام عليـه السّـلام قـد حاججهمـا وأفحمهمـا، واستشـهد وأجـاد الإستشـهاد، ومـع ذلـك فالمكابـر يسـتمر فـي مكابرتـه، ويتابـع فـي تحججـه. وقطعـاً لمكابرتـه وإحتجاجـه لجـأ الإمـام عليـه السّـلام الـى الإحتـكام، ففـي المدينـة أنـاس كانـوا علـى الحيـاد ومـا زالـوا، فهـم لـم يميلـوا الـى القـوم الناكثيـن ولـم يتبعـوا عليّـا، أي أنهـم طـرف محايـد يمكـن الإحتـكام اليـه والإلتـزام بحكمـه، ولكـن الخصـم رفـض هـذا الإقتـراح، ورفضُـه دال علـى ذنبـه.

تأثيرات النّاكثين

منـذ أن خـرج طلحـة والزبيـر مـن المدينـة متّجهيـن الـى مكـة ظهـرت نواياهمـا، فكانـا كلمـا مـرّا علـى أحـد مـن النـاس

يعلنـان أن لا بيعـة للإمـام فـي عنقيهمـا وأنهمـا إنمـا بايعـا مكرهيـن.

وعيـن الإمـام لـم تكـن تغفـل عمـا كانـا يفعـلان لذلـك رأى إيقافهمـا قبـل أن يستفحل أمرهمـا، ولذلـك نراه يقول لما أشـير اليـه بـأن لا يتبـع طلحـة والزبيـر ولا يرصـد لهمـا القتـال:

وَاللـهِ لاَ أَكُـونُ كالضَّبُـعِ تَنَـامُ عَلـى طُـولِ اللَّـدْم (١) حَتَّـى يَصِـلَ إِلَيْهَـا طَالِبُهَـا، وَيَخْتِلَهَـا (٢) رَاصِدُهـا وَلكِنِّـي أَضْرِبُ بِالمُقْبِـلِ إِلَـى الحَـقِّ المُدْبِـرَ عَنْهُ، وَبِالسَّـامِعِ المُطِيـعِ العَاصِيَ المُرِيـبَ أَبَـداً، حَتَّـى يَأْتِـيَ عَلَـيَّ يَوْمِـي. فَوَاللـهِ مَـا زِلـتُ مَدْفُوعـاً عَـنْ حَقِّـي، مُسْـتَأْثَراً عَلَـيَّ، مُنْـذُ قَبَـضَ اللـهُ تعالـى نَبِيَّـهُ صلـى اللـه عليـه وآلـه حَتَّـى يَـوْمِ النَّـاسِ هذَا.(خطبة ٦)

ولـم يكـن الإمـام عليـه السّـلام يرى الحـرب إلا حيـث لا علاج غيرهـا، لذلـك كان يرسـل الرّسـل محـاولًا إقنـاع الإثنيـن بالعـدول عـن سـيرتهما، فنـراه تـارةً يكتـب اليهمـا محتجـاً عليهمـا، ويختتـم بقولـه:

فَارْجِعَـا أَيُّهَـا الشَّـيْخَانِ عَـنْ رَأْيِكُمَا، فَـإِنَّ الاْنَ أَعْظَـمَ أَمْرِكُمَا الْعَـارُ، مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَجْتَمِـعَ الْعَـارُ وَالنَّارُ.(كتاب ٥٤)

(١) اللّدْم: صوت الحجر أوالعصا أوغيرهما، تضرب به الارض ضرباً غير شديد

(٢) يَخْتِلها: يخدعها.

وتـارة أخـرى يرسـل اليهمـا الرسـل، كابـن عبـاس، حيـث يوصيـه بـأن يلقـى الزبيـر ويقـول لـه:

يَقُـولُ لَـكَ ابْنُ خَالِـكَ: عَرَفْتَنِي بَالحِجَـازِ وَأَنْكَرْتَنِـي بِالعِرَاقِ، فَمَا عَـدَا مِمَّـا بَدَا.(خطبة ٣١)

ولكـن ذلـك كلـه لم يجـدِ نفعاً معهمـا، ولم يثنيهما عـن عزمهما. وقـد عانـى الإمـام عليـه السّـلام منهما الشـيء الكثيـر، إذ أنهما تمكّنـا مـن تأليـب النـاس عليـه، وإشـعال نـار الفتنـة، فنـراه عليـه السّـلام يتظلّـم مـن أفعالهمـا بقولـه:

اللَّهُـمَّ إِنَّهُمَـا قَطَعَانـي وَظَلَمَانـي، وَنَكَثَـا بَيْعَتِـي، وَأَلَّبَـا (١) النَّـاسَ عَلَـيَّ، فَاحْلُـلْ مَـا عَقَـدَا، وَلاَ تُحْكِـمْ لَهُمَـا مَـا أَبْرَمَـا، وَأَرِهِمَـا الْمَسَـاءَةَ فِيمَـا أَمَّـلاَ وَعَمِلا.(خطبـة ١٣٧)

والجيـش الـذي سـارا فيـه كان بأكملـه يديـن للامـام بالطاعـة، وبهـذا يقـول فـي معـرض حديثـه عـن إخراجهمـا عائشـة معهمـا:

فَخَرَجُـوا يَجُـرُّونَ حُرْمَـةَ رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآله كَمَـا تُجَـرُّ الأَمَـةُ عِنْـدَ شِـرَائِهَا، مُتَوَجِّهِيـنَ بِهَـا إِلَـى الْبَصْرَةِ،

(١) التألّب: الافساد.

فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيس (١) رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْش مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَه.(خطبة ١٧٢)

التوجّه الى البصرة

في إجتماع الناكثين الذي إتُفق فيه على حمل شعار المطالبة بدم عثمان، جرى جدال بين المجتمعين في تحديد المِصر الذي يكون منه إنطلاقهم. وللمرّة الثالثة تغلّب رأي معاوية فكان العمل حسب مشورته ونصيحته، فهو كان قد أشار على الزبير أن يبدأ وصاحبه بالإستيلاء على البصرة والكوفة، إذ ليس بعدهما شيء، وهكذا تقرر الإبتداء بالبصرة أولاً.

ولما انتهوا بجيشهم الى مشارف البصرة، كتبوا الى واليها عثمان بن حنيف ان يخلّي لهم دار الإمارة، ولكنه رفض التصرف دون إذنٍ من الإمام عليه السّلام، وفي هذه الأثناء كان الإمام عليه السّلام قد علم بمشارفة القوم البصرة، فأرسل الى ابن حنيف كتابا يأمره فيه بأن يدعو القوم

(١) حَبيس: فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وكلّ واحدة من نساء البني كانت محبوسة لرسول الله لا يجوز لاحد أن يمسّها بعده كأنها في حياته.

الى الطاعة والا فقتالهم هو الحل.

ولكن القوم كانوا قد علموا بسير عليّ عليه السّلام اليهم لذلك أسرعوا في تنجيز مخططهم، فتهافتوا على ابن حنيف، ومثّلوا به أبشع تمثيل، ثم هجموا على أصحابه، فأسروا قسما منهم، وأما القسم الآخر فقاتل حتى استشهد، وعاد الزبير الى الأسرى فذبحهم ذبح الغنم. وفي كلام للامام عليه السّلام عن هذه الأحداث يقول:

فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً (١) وَطَائِفَةً غَدْراً. (خطبة ١٧٢)

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالِي، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْر، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً، وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ (٢) فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللهَ صَادِقِين. (خطبة ٢١٧)

(١) القتل صبراً: أن تحبس الشخص ثم ترميه حتى يموت.

(٢) العض على السيوف: كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام.

وكل ذلك جعل قتال هؤلاء القوم أمرا لا بد منه، فبعد أن مثّلوا بالوالي وقتلوا المعارضين لهم أصبح بيت مال المسلمين بايديهم، واستتبت تقريبا لهم الأمور في هذا المِصر، والبصرة ليست هدفهم الاساسي بل هي خطوة على الطريق الموصل لخلافة المسلمين العامة، ولو لم يقضِ الإمام عليه السّلام عليهم لكانت خطوتهم التالية الكوفة بلا شك، عملاً بمشورة معاوية.

يقول عليه السّلام في وجوب قتالهم:

فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْم جَرَّهُ، لَحَلَّ لي قَتْلُ ذلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَان وَلاَ يَد. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ.(خطبة ١٧٢)

فالموقف هنا لا يحتمل الاجتهاد، وخاصة أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان قد أخبره بأنه سيقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين، وهؤلاء القوم هم الناكثون الذين نكثوا بيعة الإمام عليه السّلام بعد إبرامها وإقرارها.

فبالرغم من قيام الحجة عليهم، وبالرغم من إخبار النبي له، كان عليه السّلام يحاول إبعاد شبح الحرب بكل طريقة ممكنة، فتارة بإرسال الرّسل، وأخرى بكتب الكتب واعظاً

لهم، وحتى بعد أحداث البصرة وما فعلوه بها، كان عليه السّلام يأمل في إقناعهم بالرجوع عن غيّهم، ولكن دون جدوى، وهو يحكي عن محاولة إستتابتهما قبل حرب الجمل:

وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا (١) قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ (٢) فَغَمَطَا النِّعْمَةَ (٣) وَرَدَّا الْعَافِيَةَ.(خطبة ١٣٧)

وعندما لم ينفع النصح والإرشاد، كان لا بدّ من اللجوء الى الوسيلة الوحيدة المتبقية، وهى الحرب التى لا هوادة فيها، وبهذا يقول عليه السّلام:

مَالِي وَلِقُرَيْشٍ! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ.

(خطبة ٣٣)

والتعبير هنا بلفظ «قريش» عن الناكثين فيه مغزىً عميق، وهو أن هؤلاء بفعلتهم هذه كانوا ينقادون لعصبيتهم القبلية، تماما كما كانوا في الجاهلية، فالإمام عليه السّلام يضع قريشاً في جهة، ويضع نفسه وبني هاشم في الجهة

(١) اسْتَثَبْتُهُما: من ثاب (بالثاء) إذا رجع، أي استرجعتهما. وطلبت اليهما الرجوع للبيعة.

(٢) أَمام الوِقاع ككتاب: قبيل المواقعة بالحرب.

(٣) غَمَطَ النعمة: جَحَدَها.

الأخـرى، وقريـش التـي رفضـت الإعتـراف بنبـوة محمـد صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسلّم بـداعٍ مـن عصبيتهـا هـي نفسـها اليـوم ترفـض خلافـة علـيّ، والسـبب واحـد. وموقـف الإمـام عليـه السّـلام أيضـاً واحـد، فهـو قـد قاتلهـم كافريـن وقتـل صناديدهـم حتـى آمنـوا، وهـو الآن يذكّرهـم بمـا لاقـوه علـى يديـه فـي تلـك الفتـرة ويتوعدهـم بمثـل تلـك الايـام.

موقف أهل الكوفة

فـي أثنـاء سـير الإمـام عليـه السّـلام إلـى البصـرة، كتـب الـى أهـل الكوفـة كتابـاً يسـتحثّهم علـى اللّحـاق بـه لمجاهـدة القـوم الناكثيـن، وجـاء فـي نهايتـه:

وَاعْلَمُـوا أَنَّ دَارَ الْـهِجْـرَةِ (١) قَـدْ قَلَعَـتْ بِأَهْلِهَـا (٢) وَقَلَعُـوا بِهَـا وَجَاشَـتْ (٣) جَيْـشَ الْمِرْجَـلِ (٤) وَقَامَـتِ الْفِتْنَـةُ عَلَـى الْقُطْـبِ، فَأَسْـرِعُوا إِلَـى أَمِيرِكُـمْ، وَبَـادِرُوا جَهَـادَ عَدُوِّكُـمْ.

(كتاب ١)

ثـم أرسـل عليـه السّـلام محمـد بـن جعفـر، ومحمـد بـي ابـي بكـر الـى الكوفـة، ويحـدِّث ابـن ابـي الحديـد:

(١) دار الهجرة: المدينة.
(٢) قَلَعَ المكان بأهله: نَبَذَهم فلم يصلح لاستيطانهم.
(٣) جاشَتْ: غَلَتْ واضطربت.والجَيْش: الغليان.
(٤) المِرْجَلْ: القدر.

لمـا قـدم محمـد بـن جعفـر ومحمـد بـن ابـي بكـر الكوفـة، إسـتنفرا النـاس، فدخـل قـوم منهـم علـى أبي موسـى الأشـعري ليـلا ـ وكان عامـل الإمـام عليـه السّـلام علـى الكوفـة ـ فقالـوا لـه: أشـر علينـا برأيـك فـي الخـروج مـع هذيـن الرجليـن الـى عليّ عليـه السّـلام فقـال: أمـا سـبيل الآخـرة فالزمـوا بيوتكـم، وأمـا سـبيل الدنيـا فأشـخصوا معهمـا، فمنـع بذلـك أهـل الكوفة من الخـروج (١)

وعندمـا وصـل الـى علـي عليـه السّـلام خبـر مـا فعلـه ابـو موسـى، كتـب اليـه كتابـا عنيفـا يوبخـه فيـه ويتوعـده، وهـذا نصـه:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْس:

أَمَّـا بَعْـدُ، فَقَـدْ بَلَغَنِـي عَنْـكَ قَـوْلٌ هُـوَ لَـكَ وَعَلَيْـكَ، فـإِذَا قَـدِمَ عَلَيْـكَ رَسُـولي فارْفَـعْ ذَيْلَـكَ، واشْـدُدْ مِئْـزَرَكَ واخْـرُجْ مِـنْ جُحْـرِكَ وَانْـدُبْ مَـنْ مَعَـكَ، فَـإِنْ حَقَّقْـتَ فَانْفُـذْ وَإِنْ تَفَشَّـلْتَ فَابْعُـدْ، وَايْـمُ اللـهِ لَتُؤْتَيَـنَّ حَيْـثُ أَنْـتَ، وَلاَ تُتْـرَكُ حَتَّـى يُخْلَطَ زُبْـدُكَ بِخَاثِـرِكَ (٢) وَذَائِبُـكَ بِجَامِـدِكَ، وَحَتَّـى تُعْجَـلَ عَـنْ

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٤ ـ ص ٩

(٢) الخاثِر: الغليظ، والكلام تمثيل لاختلاط الامر عليه من الحيرة، وأصل المثل «لايدري أيخثر أم يذيب».قالوا: إن المرأة تملا السمن فيختلط خاثره برقيقه فتقع في حيرة، إن أو قدت النار حتى يصفو احترق، وإن تركته بقي كَدِراً

قِعْدَتِكَ وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو، وَلكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَيُذَلُّ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا.

فَاعْقِلْ عَقْلَكَ (١) وَامْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْب وَلاَ فِي نَجَاة، فَبِالْحَرِيِّ (٢) لَتُكْفَيَنَّ (٣) وَأَنْتَ نَائِم، حَتَّى لاَ يُقَالَ: أَيْنَ فُلاَنٌ؟ وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقّ، وَمَا أُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلاَم.(كتاب ٦٣)

والذي نريد التروّي عنده هنا، هو موقف ابي موسى الأشعري من الإمام عليه السّلام، فما دام الإمام عليه السّلام قد أقرّه على الكوفة وولّاه إياها، وما دامت طاعة الإمام عليه السّلام لازمة في عنقه، فلماذا يقف هذا الموقف المعادي محاولا تثبيط الناس عنه؟

لا نجد جوابا لذلك إلا أن يكون أبو موسى خيطاً من خيوط المؤامرة التي حاكها الثلاثة بإرشاد وتوجيه من معاوية، فالأحداث المتوالية تدل بوضوح على اشتراك الأشعري

(١) اعْقِل عقلك: قيّدْه بالعزيمة، ولا تدعه يذهب مذاهب التردد من الخوف.

(٢) بالحرىّ: أي بالوجه الجدير بك.

(٣) لَتُكْفَيَنّ بلام التأكيد ونونه أي: إنا لنكفيك القتال ونظفر فيه.

مـع الثلاثـة، فليـس مـن قبيـل الصدفـة أن يطابـق إحتجـاج الاشـعري إحتجـاج الثلاثـة، فعندمـا أغلـظ موفـدا الإمـام عليـه السّـلام للأشـعري القـول بسـبب تحبيطـه النـاس عـن اللّحـاق بالإمـام عليـه السّـلام، قـال لهمـا: «والله ان بيعـة عثمـان لفـي عنقـي وأعناقكمـا، لـو أردنـا قتـالا مـا كنّـا لنبـدأ بأحـد قبـل قتله عثمـان» (١). وكأنـه ينطـق بلسـان واحـد مـن الثلاثـة.

عندمـا نقـول انّ معاويـة هـو المدبّـر والمرشـد لهـذه المؤامرة، لا يكـون هـذا القـول إجحافا أبـدا، إذ أن الشـواهد التاريخية هي التـي أقنعتنـا بهـذا القـول، لأن كتـاب معاويـة إلـى الزبيـر قـد نُفّـذ بحذافيـره، أولـم يشِـر معاويـة عليهـم بالمجاهـرة بالطلـب بـدم عثمـان؟ أولـم يشـر عليهـم بضم البصـرة والكوفـة قبل كل شـيء؟ أمـا البصـرة فقـد سـاروا اليها، وأمـا الكوفة فقـد تآمروا مـع واليهـا الاشـعري، ولذلـك منـع النـاس مـن اللحـاق بعلـيّ كـي لا يحاربـوا رفاقـه المرابضيـن علـى مشـارف البصـرة.

وكادت المؤامـرة أن تنجـح، لـولا ان تمكـن الإمام عليه السّـلام مـن إفسـاد الأمـر عليهـم فـي الكوفـة اذ أنـه أرسـل اليهـا ابنـه الحّسـن وعمّـار بـن ياسـر وآخريـن، وحمّلهـم كتابـا جـاء فيـه:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي (٢) هذَا: إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٤ - ص ٩

(٢) لحي: موطن القبيلة أو منزلها.

مَظْلُومـاً، وَإِمّـا بَاغِيـاً، وَإِمَّـا مَبْغِيّـاً عَلَيْـهِ. وَأنـا أُذَكِّـرُ اللـهِ مَـنْ بَلَغَـهُ كِتَابِـي هـذَا لَمَّـا نَفَـرَ إِلَـىَّ (١) فَـإِنْ كُنْـتُ مُحْسِـناً أعَانَنِـي، وَإِنْ كُنْـتُ مُسْـيئاً اسـتَعْتَبَنِي.(كتاب ٥٧)

وأتـت الأخبـار عليّا بإختـلاف الناس في الكوفة، فقال للأشـتر: أنـت شـفعت لأبـي موسـى أن أقـرّه علـى الكوفـة، فإذهـب فأصلـح مـا أفسـدت. فقـام الأشـتر وشـخص نحـو الكوفـة حتـى دخلهـا والنـاس فـي المسـجد الأعظـم، فجعـل لا يمـر بقبيلـة إلا دعاهـا، وقـال: أتبعونـي الـى القصـر، حتـى وصلـه فإقتحمـه وأبـو موسـى حينئـذٍ يخطـب النـاس علـى المنبـر ويثبطهـم، وعمّـار يخاطبـه، والحسـن عليـه السّـلام يقـول لـه: إعتـزل عملنـا وتنـحّ عـن منبرنـا لا أمّ لـك (٢)

وعندمـا علـم بالأمـر جـاء الـى القصـر فصـاح بـه الأشـتر: «أخـرج مـن قصرنـا لا امّ لـك، أخـرج اللـه نفسـك، فواللـه إنـك لمـن المنافقيـن».

وبذلـك فسـد أمـر ابـي موسـى ومـن هـم وراءه، وخـرج مـن الكوفـة إثنـا عشـر ألـف رجـل يغـدون السـير لملاقـاة ابـن ابـي طالـب، وكان لهـم الفضـل الكبيـر فـي إنتصـاره علـى أعدائـه، لذلـك كتـب اليهـم بعـد فتـح البصـرة يشـكرهم:

(١) مّا نفرَ إلي: بتشديد «لمّا» وتقديره «إلاّ».

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ١٤ - ص ٢٠

وَجَزَاكُمُ اللـهُ مِـنْ أَهْـلِ مِصْـر عَنْ أَهْلِ بَيْـتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَـنَ مَا يَجْـزِي الْعَامِلِيـنَ بِطَاعَتِـهِ، وَالشَّـاكِرِينَ لِنِعْمَتِـهِ، فَقَـدْ سَـمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُـمْ فَأَجَبْتُمْ.(كتاب ٢)

نـهايـة المطاف

نـهايـة مطـاف النـاكثيـن كانـت في حـرب الجّمل الشـهيرة، التي ذهـب ضحيتهـا الآلاف مـن المعسـكرين، وإنتهـت بإنتصـار الإمـام عليـه السّـلام عليهـم، وقُتـل فيهـا طلحـة والزبيـر رأسـا الفتنـة، وقـد سـار الإمـام عليـه السّـلام فـي المنهزميـن سـيرة الرسـول صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم، وهـو يحدثنـا عمّـا فعله معهـم عندمـا يقـول:

فَعَفَـوْتُ عَـنْ مُجْرِمِكُـمْ، وَرَفَعْـتُ السَّـيْفَ عَـنْ مُدْبِرِكُـمْ، وَقَبِلْـتُ مِـنْ مُقْبِلِكُمْ.(كتـاب ٢٩)

وعندمـا مـرّ عليـه السّـلام علـى طلحـة وهـو قتيـل قـال فـي لهجـة المحـزون:

لَقَـدْ أَصْبَـحَ أَبُـو مُحَمَّـد بِهـذَا الْمَـكَانِ غَرِيبـاً، أَمَـا وَاللـهِ لَقَـدْ كَنْـتُ أَكْـرَهُ أَنْ تَكُـونَ قُرَيْـشٌ قَتْلَـى تَحْـتَ بُطُـونِ الْكَوَاكِـبِ، أَدْرَكْـتُ وَتْـرِي (١) مِـنْ بَنِـي عَبْـدِ مَنَـاف، وَأَفْلَتَتْنِـي أَعْيَـانُ

(١) الوِتْر: الثأر.

بَنِـي جُمَـحَ، لَقَـدْ أَتْلَعُـوا (١) أَعْنَاقَهُـمْ إِلَـى أَمْـر لَـمْ يَكُونُـوا أَهْلَـهُ فَوُقِصُـوا (٢) دوُنَهُ.(خطبـة ٢١٨)

(١) أتلعوا: أي رفعوا أعناقهم ومدّوها لتناول أمر، وهو مناوأة أمير المؤمنين على الخلافة.

(٢) وُقِصوا: أي كُسرَت أعناقهم، دون الوصول إليه.

الفصل التّاسع:

القاسطون

القاسطون هم الفئة الثّانية التي أُخبِر الإمام عليه السّلام انه سيقاتلها، وهم معاوية واصحابه.

البداية مع معاوية

سبق وذكرنا أن من أهم اسباب الثّورة على عثمان، هو جور ولاته وفسقهم. وعندما بويع لأمير المؤمنين عليّ عليه السّلام، كانت أولى وأهم خططه الإصلاحية هي عزل هؤلاء الولاة الذين لا يرضى عنهم الله ولا رسوله ولا المؤمنون، ومن هؤلاء الولاة معاوية.

كان معاوية قد تولّى على الشام بعد مضي خمس سنوات من أول خلافة عُمر، وإستمر حتى آخر خلافته. وعندما جاء عثمان أقرّه على عمله، فبقي طيلة فترة خلافته، وهذه المدة الطويلة على الشام -سبعة عشر سنة - كانت كافية لمعاوية لتثبيت قدميه وتوطيد ملكه.

كتب الإمام عليه السّلام في أوائل خلافته الى معاوية يأمره بمبايعة أهل الشام له، ويدعوه بالقدوم اليه، وهذا نصّ كتابه:

أَمَّـا بَعْـدُ، فَقَـدْ عَلِمْـتَ إِعْـذَارِي فِيكُـمْ، وَإِعْرَاضِـي عَنْكُـمْ، حَتَّـى كَانَ مَـا لاَ بُـدَّ مِنْـهُ وَلاَ دَفْـعَ لَـهُ، وَالْحَدِيـثُ طَوِيـلٌ، وَالْـكَلاَمُ كَثِـرٌ، وَقَـدْ أَدْبَـرَ مَـا أَدْبَـرَ، وَأَقْبَـلَ مَـا أَقْبَـلَ، فَبَايِـعْ مَـنْ قِبَلَـكَ (١) وَأَقْبِـلْ إِلَـيَّ فِـي وَفْـد مِـنْ أَصْحَابِكَ، وَالسَّـلاَمُ.

(خطبة ٧٥)

ولـم يتفاجـأ معاويـة بكتـاب علـيّ عليـه السّـلام اليـه، بـل كان يتوقعـه ولذلـك فقـد أعـدّ العـدة للتصـرّف عنـد وصـول أمـر الإمـام عليـه السّـلام اليـه. الفكـرة الأساسـية فـي ذهنـه، هـي أنـه لـن يبايـع مهمـا كلّـف الأمـر لأنـه يعلـم يقينـاً انـه إن بايـع للإمـام عليـه السّـلام وقـدم عليـه كمـا طلـب، فانـه عليه السّـلام سـوف يجـرده مـن كل مـا جمعـه طيلـة فتـرة حكمـه علـى الشـام، فهـو لـم يخـفَ عليـه قـول الإمـام عليـه السّـلام فـي الأمـوال التـى أقطعهـا عثمـان:

وَاللـهِ لَـوْ وَجَدْتُـهُ قَـدْ تُـزُوِّجَ بِـهِ النِّسَـاءُ، وَمُلِـكَ بِـهِ الاْمَـاءُ، لَرَدَدْتُـهُ، فَـإِنَّ فـي العَـدْلِ سَـعَةً، وَمَـنْ ضَـاقَ عَلَيْـهِ العَـدْلُ، فَالجَـوْرُ عَلَيْـهِ أَضيَقُ.(خطبـة ١٥)

وكانـت الفكـرة أن يحـرّض طلحـة والزبيـر علـى الإمـام عليـه السّـلام عسـى أن يتمكنـا مـن نقـض بيعتـه، أو علـى الأقـل يشـغلاه عنـه فتـرة مـن الزمـن، وهـو يعـرف انهمـا سـاخطان

(١) قِبَلَك أي: عندك.

علــى الإمــام عليــه السّــلام وبيعتــه، أمــا أولا: فــلأن الإمــام عليــه السّــلام قــد تولــى المنصــب الــذي كانــا يطمحــان بــه، والــذي بــذلا الجهــد الجهيــد مــن أجلــه. وثانيــا: أنهمــا بايعــا بعــد ان فاتتهمــا الخلافــة عســى أن يشــاركهما فــى الأمــر، أو يوليهمــا بعــض الأعمــال، ولكنــه عليــه السّــلام لــم يجعــل لهمــا ذلــك. فمــن الطبيعــي بعــد هــذا أن ينقمــا عليــه ويكرهــا بيعتــه، وقــد اســتفاد معاويــة مــن ذلــك فأرســل اليهمــا الكتــاب الــذي تقــدم ذكــره والــذي يحرضهمــا فيــه علــى نقــض البيعــة، زاعمــاً لهمــا أنــه قــد بايــع لهمــا فــي الشــام بالخلافــة.

وبالطبــع فــإن معاويــة لــم يبايــع لهمــا بالشــام، اذ لــم يحدثنــا التاريــخ بذلــك، ولكنــه دفــع بهمــا الــى مواجهــة علــيّ وجلــس ينتظــر، فــإن تغلبــا علــى علــيّ عليــه السّــلام وإســتوليا علــى الخلافــة، فــإن لــه نصيبــه مــن الأمــر، وإن تمكّــن الإمــام عليــه السّــلام منهمــا فيكــون قــد اســتفاد مــن فترة إنشــغال الإمــام عليه السّــلام بهمــا، عســى أن يرتّــب أمــوره، أثنــاء ذلــك. وهكــذا كان، فقــد إنشــغل الإمــام عليــه السّــلام بطلحــة والزّبيــر، بعــد أن انضمــت اليهمــا عائشــة، فكانــت أحــداث البصــرة ثــم وقعــة الجمــل حيــث كان نهايــة أمرهــم. وطــوال هــذه الفتــرة كان معاويــة يحــرّض النــاس علــى قَتَلــة عثمــان متهمــاً فيــه علياً، وبذلــك أقنــع أهــل الشــام انّ بيعــة الإمــام عليــه السّــلام غيــر صحيحــة فــلا تلزمهــم.

حقيقة معاوية

في هذه الفقرة الموجزة، ننقل بعض أقوال الإمام عليه السّلام في حق معاوية، فمما قال فيه:

وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ.(خطبة ٢٠٠)

وفي كتاب له عليه السّلام الى معاوية:

وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْييزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ.(كتاب ٢٨)

وفي كتاب له عليه السّلام في التفاضل على معاوية، وان يكن ليس هناك مجال للمفاضلة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلاَّ كَرْهاً. (كتاب ٦٤)

ومن كتاب آخر له:

فَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلاَفِكَ بِادِّعَائِكَ الأَبَاطِيلَ، وَإِقْحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ (١) وَالأَكَاذِيبِ، وَبِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلاَ عَنْكَ وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ اخْتُزِنَ (٢) دُونَكَ.(كتاب ٦٥)

وبعد، فهذه الأوصاف لو اجتمعت في شخص، لما استحق ان يسمى مسلما، أو يدخل في جماعة المسلمين، فكيف بأن يكون خليفتهم وأميرهم؟

الدّعوة للمبايعة من جديد

عندما انتهى عليه السّلام من فتنة أصحاب الجّمل، نزل الكوفة، وعاد إلى معاوية يطالبه بالبيعة، فأرسل اليه جرير بن عبدالله البجلي ليكلمه، وحمّله كتاباً جاء به:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُل وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ لله رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْن أَوْبِدْعَة رَدُّوهُ إِلَى مَاخَرَجَ منه، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى.(كتاب ٦)

(١) المَيْن: الكَذِب.

(٢) اخْتُزِنَ أي: مُنِعَ دون الوصول اليك

وفـي هـذا تهديـد لمعاويـة بأنـه غيـر متـروك حتـى يبايـع، وإلا فقتالـه أمـرٌ لا بـدّ منـه لتؤخـذ منـه البيعـة بالقـوّة، ولكـن معاويـة لـم يجـب بشـيء لا بالمبايعـة ولا بالرّفـض، بـل أخـذ يماطـل رسـول الإمـام عليـه السّـلام إليه، فإسـتبقاه عنـده أربعة أشـهر، حتـى سـئم قـوم الإمـام عليـه السّـلام وملّـوا الإنتظـار فكلمـوه بـأن يسـير إلـى معاويـة، فأجابهـم عليـه السّـلام:

إِنَّ اسْـتَعْدَادِي لِحَـرْبِ أَهْـلِ الشَّـامِ وَجِرِيـرٌ عِنْدَهُـمْ، إِغْـلاَقٌ لِلشَّـامِ، وَصَـرْفٌ لِاهْلِـهِ عَـنْ خَيْـر إِنْ أَرادُوهُ، وَلَكِـنْ قَـدْ وَقَّـتُّ لِجَرِيـر وَقْتـاً لاَ يُقِيـمُ بَعْـدَهُ إِلاَّ مَخْذُوعـاً أَوْ عَاصِيـاً.

(خطبة ٤٣)

وكان عليـه السّـلام قد كتـب الـى جريـر وهـو فـي الشـام بـأن لا يجـاري معاويـة فـي مماطلتـه إذ انهـا لا توصـل إلـى نتيجة، وفيمـا يلـي نـص الكتاب:

أَمَّـا بَعْـدُ، فَـإِذَا أَتَـاكَ كِتَابِـي فَاحْمِـلْ مُعَاوِيَةَ عَلَـى الْفَصْلِ (١) وَخُـذْهُ بَالأَمْـرِ الْجَـزْمِ، ثُـمَّ خَيِّـرْهُ بَيْـنَ حَـرْب مُجْلِيَـة (٢) أَوْ سِلْم مُخْزِيَـة فَـإِنِ اخْتَـارَ الْحَـرْبَ فَانْبِـذْ إِلَيْـهِ (٣) وَإِنِ اخْتَـارَ السِّـلْمَ فَخُـذْ بَيْعَتَه.(كتـاب ٨)

(١) الفصل: الحكم القطعي.

(٢) حرب مُجْلِية: أي مخرجة له من وطنه

(٣) فانْبِذْ إليه: أي اطرح إليه عهد الامان وأعلنه بالحرب

ولكن مراوغة معاوية ومماطلة الرسول إستمرت أربعة أشهر كان خلالها قد رتّب أموره فقام بخطوات مهمّة بالنسبة اليه. فمنها أنه قام بجسّ نبض أهل الشام ليرى إن كانوا على استعداد للقيام بالمطالبة بدمّ عثمان، وقد أجابوه الى ذلك.

ومنها أنه كتب الى بعض الأمصار الأخرى أن يساندوه في حربه مع الإمام عليه السّلام أو على الاقل يضمن عدم مساندتهم له. ومنها ـ ولعله أهم ما قام به ـ أنه استقدم عمرو بن العاصّ اليه.

وصف الإمام عليه السّلام لابن العاصّ

لقد كان لإبن العاص أثر كبير في تقرير مسار الحرب بين عليّ ومعاوية، وفيما يلي نذكر بعض كلمات الإمام عليه السّلام في وصفه. قال عليه السّلام وقد بلغه أن عمرو بن العاص يقول إن في عليّ دعابة:

عَجَباً لِإبْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ (١) أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ (٢) ! لَقَدْ قَال بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً. أَمَا وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ إِنَّهُ لَيَقُول فَيَكْذِبُ،

(١) تِلعابة بكسر التاء: كثير اللعب.

(٢) أُعافِس: أعالج الناس وأُضاربهم مِزاحاً، ويقال: المعافسة: معالجة النساء بالمغازلة والممارسة كالمُعافَسة.

وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ (١) وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الإلَّ (٢) ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ (٣) ... إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً (٤) وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.(خطبة ٨٣)

فالإمام عليه السّلام في كلامه هذا يفضح إبن العاص في ثلاثة أمور، يكفيه واحدة منها لتجعله محتقراً.

الأمر الأول انه إبن نابغة. ذَكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار: كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمَة لرجل من عنزة، فسبيت فاشتراها عبدالله بن جدعان التيمي بمكة، فكانت بغياً ثم أعتقها، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطّلب، وأمية بن خلف الجمحي، وهشام بن المغيرة المخزومي، وأبو سفيان بن حرب، والعاصّ بن وائل السهمي في طهر واحد، فولدت عمروا، فادّعاه كلهم فحكمت أمّة فيه فقالت: هو من العاصّ بن وائل وذلك

(١) يُلْحِف: أي يلح.

(٢) الالّ بالكسر: القرابة، والمراد من قطع الالّ أن يقطع الرحم.

(٣) السّبّة بالضم: الاست.

(٤) الاتِيّة: العطيّة.

لأن العاصّ بن وائل كان ينفق عليها كثيراً.

الأمر الثاني: كشفه سوءته يوم صفين لينجو من سيف عليّ عليه السّلام، ذكر نصر بن مزاحم في كتابه (صفين): لما اختلطت الصفوف - يوم صفين- لقي عمرو بن العاص علياً فحمل عليه برمحه، فتقدم عليّ عليه السّلام وهو مخترط سيفاً معتقل رمحاً، فلما رهقه هزّ فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو بن العاصّ عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه، كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتا وجهه مستديرا له.

الأمر الثالث: بيعَه دِينه لمعاوية مقابل مصر. ذكر ابن أبي الحديد أن معاوية إستشار أخيه عتيبة بن ابي سفيان- وذلك لما أتاه كتاب علي عليه السّلام يدعوه للبعية- فقال له: إستعن بعمرو بن العاص فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد إعتزل عثمان في حياته وهو لأمرك اشد اعتزالاً الا ان يثمّن له دينه فسيبيعك، فانه صاحب دنيا.

مساومة عمرو بن العاصّ

عمرو بن العاص لا يقلّ دهاءً عن معاوية لذلك إختاره ليكون له سندا في حربه مع علي ولكن عمرو أشترط عليه أن يقطعه مصر ثمنا لذلك، فوافق معاوية، وقد فضح الإمام عليه السّلام هذا الإتفاق وما دفع ثمنا له حيث يقول

فـي حـق عمـرو:

وَلَـمْ يُبَايـعْ حَتَّـى شَـرَطَ أَنْ يُؤْتِيَـهِ عَلَـى البَيْعَـةِ ثَمَنـاً، فَـلاَ ظَفِـرَتْ يَـدُ المبايِـعِ، وخَزِيَـتْ أَمَانَـةُ المُبْتَاعِ.(خطبـة ٢٦)

وفي كتاب للإمام يوبّخ فيه عمروا، كتب عليه السّلام:

فَإِنَّـكَ جَعَلْـتَ دِينَـكَ تَبْعـاً لِدُنْيَـا امْـرِىء ظَاهِـر غَيُّـهُ، مَهْتُـوك سِـتْرُهُ، يَشِـينُ الْكَرِيـمَ بِمَجْلِسِـهِ، وَيُسَـفِّهُ الْحَلِيـمَ بِخِلْطَتِـهِ، فَاتَّبَعْـتَ أَثَـرَهُ، وَطَلَبْـتَ فَضْلَـهُ، اتِّبَـاعَ الْكَلْـبِ لِلضِّرْغَـامِ (١) يَلُـوذُ إِلَـى مَخَالِبِـهِ، وَيَنْتَظِـرُ مَا يُلْقَـى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَـتِهِ، فَأَذْهَبْـتَ دُنْيَـاكَ وَآخِرَتَكَ.(كتـاب ٣٩)

ماذا يريد معاوية

مطامـع معاويـة لا تنحصـر فـي الشـام، فهـو كان يتطلـع الـى خلافـة المسـلمين العامـة، وكان يأمـل أن تصـل اليـه بعـد مقتل عثمـان - وسـنثبت هـذا الـكلام فـي حينـه - وأمـا وقـد فاتتـه الخلافـة العامـة فليـرضَ بالشـام مؤقتـا بالإضافـة الـى مصـر لأنـه كان قـد وعـد بهـا ابـن العـاص. فطـرح هـذا الـرأي علـى جريـر- وكان لا يـزال عنـده - فإقتـرح عليـه أن يكتـب الـى الإمـام عليـه السّـلام «أن يجعـل لـي الشـام ومصـر جبايـة،

(١) الضِرْغام: الاسد

فـاذا حضرتـه الوفـاة لـم يجعـل لأحـد بعـده فـي عنقـي بيعـه وأسـلّم لـه هـذا الأمـر» (١)

ولكـن الإمـام عليـه السّـلام بالطبـع رفـض هـذا الإقتـراح. وبالرغـم مـن هـذا الرفـض فـإن معاويـة لـم يسـأم بـل كتـب الـى الإمـام عليـه السّـلام ثانيـة يطلـب إليـه الشـام فـكان جواب الإمـام عليـه السّـلام أن كتـب اليـه:

وَأَمَّـا طَلَبُـكَ إِلَـيَّ الشَّـامَ، فَإِنِّـي لَـمْ أَكُـنْ لِأُعْطِيَـكَ الْيَـوْمَ مَـا مَنَعْتُـكَ أَمْسِ.(كتـاب ١٧)

وهـذا الرفـض المتكـرّر مـن لـم يكن ليثنـي معاوية عمّـا أراده، فبعـد أن ذاق حـلاوة المُلـك طيلـة سـبعة عشـر سـنة، لـم يكـن مـن السّـهل عليـه أن يتركـه ويتجـرّد مـن كل ما ادّخـره ليعيش حيـاة الإنسـان العـادي المأمـور بعـد أن كان هـو الآمر.

وكان إحتجاجـه فـي إدعائـه عدم لزوم بيعة الإمام عليه السّـلام لـه يتلخـص فـي نقطتيـن. النقطـة الأولـى، إدعـاء عـدم لـزوم بيعـة الإمـام عليـه السّـلام لـه لأنهـا لـم تكـن عـن رضـى كافـة المسـلمين. والنقطـة الثانيـة: إتهـام الإمـام عليـه السّـلام بـدمّ عثمـان. وقـد أجـاب الإمـام عليـه السّـلام عـن كلا النقطتيـن، وفيمـا يلـي نسـتعرضهما بالتفصيـل.

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٣ - ص ٨٤

تماميّة بيعة الإمام عليه السّلام

ذكرنا فيما سبق كيفية مبايعة الناس لعليّ بعد مقتل عثمان، وقد تبين أنها أشمل بكثير من بيعة أبي بكر، حيث أن بيعته قد فرضتها فئة خاصة من الصحابة على بقية الناس، بينما بيعة الإمام عليه السّلام كانت من النّاس مباشرة، فهي تتحلّى بكثير من الديمقراطية، وبالرغم ذلك فإن معاوية يرفضها بإدعائه انها غير تامّة فلا تُلزمه، فالذين بايعوه حتى لو كانوا كل الناس فإن مبايعتهم لا تلزمه بشيء طالما انه لم يبايع، وطالما انّ أهل الشام يدينون له بالطاعة، فيحتج عليه الإمام عليه السّلام فكتب اليه:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُل وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ لله رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْن أَوْبِدْعَة رَدُّوهُ إِلَى مَاخَرَجَ منه، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى.(كتاب ٦)

ومن كتاب آخر له ايضا:

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لاَ يُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ وَلاَ يُسْتَأْنَفُ فِيهَا

الْخِيَارُ، الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي (١) فِيهَا مُدَاهِنٌ. (كتاب ٧)

ويقول عليه السّلام في خطبة له:

وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فمَا إِلَى ذلك سَبِيلٌ، وَلكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. (خطبة ١٧٣)

ففي هذا الكلام ردّ قاطع على ما يحتجّ به معاوية، فاذا ما تمّت مبايعة أهل الحِلّ العقد، فليس للذين شهدوا البيعة أن يتراجعوا وينقضوها - كطلحة والزبير وأتباعهما- كما ليس للغائب الذي لم يحضرها أن يدّعي أن البيعة لا تلزمه - كمعاوية - وإذا ما ادّعى أحد ذلك فان الواجب على المسلمين أن يجاهدوه حتى يدخل فيما دخل فيه الناس. وأما ان لا تنعقد البيعة إلا بحضور كافة المسلمين فهذا أمر يكاد يكون مستحيلا.

والذي تجدر الإشارة اليه هنا أن احتجاج الإمام عليه السّلام إنما هو من قبيل إلزام الخصم بما ألزم به نفسه فلا يعني أبدا انه يعتقد بأن الطريق الصحيح للخلافة إنما

(١) المُرَوِّي: هو المتفكر هل يقبل الشيء أوينبذه.

هـو بمبايعـة النـاس، إذ تقـدم معنـا ان الخلافـة منصـب إلهـي يعينــه النبــي بنفســه.

التبرّؤ من دمّ عُثمان

نجـح معاويـة فـي إقنـاع أهـل الشـام أن عثمـان قُتـل مظلومـا، وانــه هـو المسـؤول عـن المطالبـة بدمـه لمـكان قرابتـه منـه. فالتــفّ حولــه أهــل الشــام وبايعــوه علــى المطالبــة بدمــه، فاغتنمهـا معاويـة فرصـة ليثيـر النـاّس علـى عليّ عليه السّـلام بـأن جعلـه مسـؤولاً عـن تسـليم قَتلـة عثمـان، فكتـب الـى الإمام عليـه السّـلام: «وقـد أبـى أهـل الشـام إلا قتالك حتـى تدفـع اليهم قتلـة عثمـان، فـإن فعلـت كانـت شـورى بيـن المسـلمين» (١)

وجعـل يكـرر طلبــه هـذا ويصـرّ عليــه، وكان الإمــام عليــه السّــلام يجيبــه فــي كل مــرة بالرّفـض، فكتــب اليــه مــرة:

وَأَمَّـا مَـا سَـأَلْتَ مِـنْ دَفْـعِ قَتَلَـةِ عُثْمـانَ إِلَيْـكَ، فَإِنِّــي نَظَـرْتُ فِـي هـذَا الأَمْـرِ، فَلَـمْ أَرَهُ يَسَـعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْـكَ وَلاَ إِلَـى غَيْرِكَ.

(كتاب ٩)

وكتـب اليـه ثانيـة، فاضحـا غايتـه الحقيقيـة مـن المطالبـة بـدم عثمـان، حيـث يقـول عليـه السّـلام:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٣ - ص ٨٨

وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالباً.(كتاب ١٠)

وفي كتاب ثالث كتب اليه:

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمانَ، فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقُوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ. وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ.(كتاب ٦٤)

لو أراد معاوية بالفعل المطالبة بدم عثمان والإقتصاص من قتلته لوجب عليه البدء بطلحة والزبير، حيث كانا- كما قدمنا- من أشد المحرّضين عليه، ولكنه على العكس من ذلك إتخذهما له عونا وبايع - كما يزعم - لهما بالخلافة. فما يريده معاوية هو شيء وراء ذلك، انه يريد من الإمام عليه السّلام إقراره على الشام، وما مطالبته بدم عثمان إلا وسيلة إتخذها لتحقيق ذلك، فكأنه يريد تهديد الإمام عليه السّلام بأنه إذا لم يترك له ما أراده فانه سيواجه متاعب كثيرة مع أهل الشام المطالبين بدم عثمان المقتول ظلماً، ولكن انّى لابن أبي طالب ان يخضع للتهديد.

وإزاء رفض الإمام عليه السّلام المتكرر تسليم قتلة عثمان، إنتقل معاوية الى الخطوة التالية، وذلك بأن جعل الإمام عليه السّلام موضع التهمة، حيث أن قتلة عثمان بين يديه-

كمـا يزعـم معاويـة - وهـو يدافـع عنهـم ويرفـض الإقتصـاص منهـم، وأي تبريـر لذلـك إلا ان يكـون راضيـاً عـن فعلهـم أو ربمـا شـريك لهـم؟

وهـذا الرفـض المتكـرر أعطـى معاويـة فرصـة عظيمـة لإقنـاع أهـل الشـام بـأن الخليفـة الجديـد مشـارك بـدم عثمـان، لذلـك يجـب رفـض بيعتـه وقتالـه كأي متّهـم آخـر، فأخـذت كتـب معاويـة تتوالـى علـى الإمـام عليـه السّـلام، فكتـب اليـه مـرة: «ثـم لـم تكـن أشـد منـك حسـدا لابـن عمـك عثمـان، نشـرت مقابحـه وطويـت محاسـنه وطعنـت فـي فقهـه، ثـم في دينـه، ثم فـي سـيرته ثـم فـي عقلـه، وأغريـت بـه السـفهاء مـن أصحابك وشـيعتك، حتـى قتلـوه بمحضـر منـك، لا تدفـع عنه بلسـان ولا يد».(١)

وفـى كتـاب آخـر كتـب معاويـة: «ولكنـك أغريـت بعثمـان المهاجريـن، وخذّلـت عنـه الأنصـار، فأطاعـك الجاهل، وقوي بـك الضعيـف».(٢)

لقـد أصبـح الإمـام عليـه السّـلام نتيجـة مغالطـات معاويـة، فـي موضـع التّهمـة بنظـر أهـل الشـام حتـى أنـه أصبـح بحاجـة الـى تبريـر سـاحته، ولهـذا كتـب الـى معاويـة:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٥ - ص ١٨٦

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٣ - ص ٨٨

وَلَعَمْـرِي، يَـا مُعَاوِيَـةُ، لَئِـنْ نَظَـرْتَ بِعَقْلِـكَ دُونَ هَـوَاكَ لَتَجِدَنِّـي أَبْـرَأَ النَّـاسِ مِـنْ دَمِ عُثْمَـانَ، وَلَتَعْلَمَـنَّ أَنِّـي كُنْـتُ فِـي عُزْلَـة عَنْـهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّـى، فَتَجَـنَّ مَـا بَـدَا لَكَ.(كتـاب ٦)

وفي جواب على كتاب معاوية السابق، كتب عليه السّلام:

ثُـمَّ ذَكَـرْتَ مَـا كَانَ مِـنْ أَمْـرِي وَأَمْـرِ عُثْمَـانَ، فَلَـكَ أَنْ تُجَابَ عَـنْ هَـذِهِ لِرَحِمِـكَ منْـهُ فَأَيُّنَـا كَانَ أَعْـدَى لَـهُ وأَهْـدَى إِلَـى مَقَاتِلِـهِ ! أَمْ مَـنْ بَـذَلَ لَـهُ نُصْرَتَـهُ فَاسْـتَقْعَدَهُ وَاسْـتَكَفَّهُ (١) أَمْ مَـنِ اسْـتَنْصَرَهُ فَتَرَاَخـى عَنْـهُ بَـثَّ الْـمَنُونَ إِلَيْـهِ حَتَّـى أَتَـى قَـدَرُهُ عَلَيْهِ.(كتـاب ٢٨)

ففـي نفـس الوقـت الـذي يدافـع بـه الإمـام عليـه السّـلام عـن نفسـه ويثبـت براءتـه، نـراه يتّهـم معاويـة بالمشـاركة بقتـل عثمـان، فالمشـاركة ـ كمـا قلنا ـ ليس مـن الضروري ان تكون بالمباشـرة، بـل يكفـي فـي مسـمّاها القعـود عـن المناصـرة.

روى البـلاذري كمـا فـي شـرح ابـن ابـي الحديـد: «لمـا أرسـل عثمـان الـى معاويـة يسـتمدّه، بعـث يزيـد بـن أسـد القصـري وقـال لـه: إذا أتيـت ذا خشـب فأقـم بهـا، ولا تتجاوزهـا، ولا تقـل الشّـاهد يـرى مـا لا يـرى الغائـب، فإننـي أنـا الشـاهد وانت الغائـب. فأقـام بـذي خشـب حتى قُتـل عثمـان، فاسـتقدمه حينئذ

(١) اسْتَكَفّه: طلب كفّه عن الشيء.

معاوية، فعاد الى الشام بالجيش الذي كان أُرسل معه»(١)

والـى هـذا أشـار الإمـام عليـه السّـلام بخـذل معاويـة لعثمـان، وقـد أراده ان يبقـى خارجـا لسـبب يتّضـح لنـا بعـد قليـل، ومـن كتـاب آخـر إلـى معاويـة يقـول عليـه السّـلام فيـه:

فَإِنَّـكَ إِنَّمَـا نَصَـرْتَ عُثْمـانَ حَيْـثُ كَانَ النَّصْـرُ لَـكَ، وَخَذَلْتَـهُ حَيْـثُ كَانَ النَّصْـرُ لَهُ.(كتـاب ٣٧)

و هـذا العبـارة تفضـح معاويـة فـي نقطتيـن الأولـى: أن معاوية خـذل عثمـان حيـن كان بحاجـة الـى نصرتـه، والثانيـة: أنـه قـام يطالـب بدمـه وينتصـر لـه حيـن رأى أن ذلـك يدعمـه ويسـاعده مـن أجـل جمـع النـاس حولـه.

وأمـا سـبب قعـود معاويـة عـن نصـرة عثمـان -بالرغـم مـن أنـه كان أول المسـتفيدين منـه - هـو نفـس السـبب الـذي دعـا طلحـة والزبيـر للتحريـض عليه، أي الطمـع بالخلافة. فمعاوية أيضـا كان يطمـع بالخلافـة، ففـي تتمة حديث البلاذري السـابق الـذي نقلنـاه عـن شـرح ابـن ابـي الحديـد نجـده يقول فـي تبرير موقـف معاويـة مـن عثمـان: وإنمـا صنـع ذلـك معاويـة ليُقتـل عثمـان فيدعـو الـى نفسـه.

وكان معاويـة يقـول «انـه ليـس أحد أقوى منـي علـى الإمارة». وطمـع معاويـة بالخلافـة بـدأ منذ ذلـك اليوم الـذي دعا فيه

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٦ - ص ١٥٤

عثمـان ولاتـه للتّشـاور فيمـا يجـب فعلـه لإخمـاد نقمـة النـاس عليـه، وكان معاويـة قـد أشـار عليـه بمرافقتـه الـى الشـام، أو بـأن يرسـل اليـه جيشـاً يحميـه، ولكنـه رفـض، حينـذاك قـال لـه معاويـة: واللـه لتُغتالـنّ. فقـال عثمـان: حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل.(١)

فمنـذ ذلـك اليـوم عـرف معاوية أن عثمـان مقتـول، وكان يرى نفسـه أولـى النـاس بالأمـر بعـده، فالشـام بيـده وأهلهـا علـى طاعتـه، وليـس أحـد مـن ولاة عثمـان مثلـه.

ولكـن مـا حـدث أن النـاس بايعـوا عليّـا، فكانـت صدمـة عنيفـة لمعاويـة فخـرج يطالـب بـدم عثمان.

وجوب قتال القاسطين

بعـد أن أوضـح عليـه السّـلام ضـلال معاويـة ومن اتّبعـه، وانّ بيعتـه لازمـة فـي أعناقهـم، خلـص مـن ذلـك الـى أن قتالهـم واجـب لا يمكـن التهّـرب منـه، فـكان يقـول لأصحابـه:

وَلَقَـدْ ضَرَبْـتُ أَنْـفَ هـذَا الأمْـرِ وَعَيْنَـهُ (٢) وَقَلَّبْـتُ ظَهْـرَهُ وَبَطنَـهُ، فَلَـمْ أَرَ لِـي إِلاَّ الْقِتَـالَ أَوِ الْكُفْر.(خطبـة ٤٣)

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ١٣٩

(٢) وَلَقَدْ ضرَبْتُ أنْفَ هذا الامْرِ وعَيْنَهُ: مَثَلٌ تقوله العرب في الاستقصاء في البحث والتأمل والفكر.

وقال أيضا:

قلَّبْتُ هذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعْني إِلاَّ قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله.(خطبة ٥٣)

يشير في ذلك الى إخبار النبيّ له بأنه يقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين، وهذا الإخبار في الحقيقة هو عبارة عن أمر له بذلك. وكان الإمام عليه السّلام يدرس الوضع الذي هو فيه محاولاً إيجاد المخرج الذي يُبعد شبح الحرب ويعفيه منها، ولكنه في كل مرة كان يجد أن الحرب هي القرار الوحيد الذي يجب سلوكه، بل كانت تفرض نفسها عليه فرضاً، بالرغم من محاولاته الكثيرة لإيجاد مخرج غيرها. فنراه يكتب الى معاوية المرّة تلو الأخرى في محاولة لإقناعه بالرجوع عن غيّه، ومن جملة ما كتب اليه عليه السّلام:

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ في حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لاَ تُعْذَرُ بَجَهَالَتِهِ.(كتاب ٣٠)

وكتب اليه ايضا:

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ.(كتاب ٣٢)

الـى غيـر ذلـك مـن المواعـظ التـي لـن نطيـل بذكرهـا، ولكـن معاويـة لـم يكـن يـزداد إلا إصـراراً علـى موقفـه، فـكان يـردّ علـى الإمـام عليـه السّـلام واعظـاً إيـاه بـدوره بالرجـوع عـن غيّـه. وذلـك كلـه لـم يكـن ليدخـل اليـأس الـى قلـب الإمـام عليـه السّـلام، فاسـتمّر فـي محاولاتـه لحقـن الدمـاء، فكتـب الـى معاويـة وقـد دعـاه الـى الحـرب:

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَـى الْحَـرْبِ، فَدَعِ النَّـاسَ جَانِبـاً وَاخْـرُجْ إِلَـيَّ، وَأَعْـفِ الْفَرِيقَيـنِ مِـنَ الْقِتَـالِ، لِتَعْلَـمَ أَيُّنَـا الْمَرِيـنُ (١) عَلَـى قَلْبِـهِ، وَالْمُغَطَّـى عَلَـى بَصَـرِهِ! فَأَنَـا أَبُـو حَسَـن قَاتِـلُ جَـدِّكَ وَخَالِـكَ وأَخِيـكَ شَـدْخاً (٢) يَـوْمَ بَـدْر، ذلـكَ السَّـيْفُ مَعِـي، وَبِذلِـكَ الْقَلْـبِ أَلْقَـى عَدُوِّي.(كتـاب ١٠)

إقتـراح منصـف مـن الإمـام عليـه السّـلام، أن يتبـارز مـع معاويـة وأيّ الشـخصين كانـت لـه الغلبـة فانـه يكـون الخليفـة، وفـي الحالتيـن تُحقـن دمـاء المسـلمين، وبطبيعـة الحـال رفض معاويـة هـذا العـرض فهـو يعـرف سـيف إبـن أبـي طالـب، ويـدرك أن لا أمـل لـه معـه.

(١) المَرِين بفتح فكسر: اسم مفعول من رانَ ذنبهُ على قلبه: غلب عليه فغطى بصيرته.

(٢) شدخاً: أي كسراً في الرطب.

وعندما التقى عسكر عليّ عليه السّلام بعسكر معاوية في صفين، أوصى عليه السّلام عسكره فقال:

لاَ تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّة، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلاَ تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلاَ تُصِيبُوا مُعْوِراً (١) وَلاَ تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيح.(خطبة ١٤)

وكل ذلك في محاولة للإقتصار على أقل عدد من الضحايا.

ويمكننا تلخيص موقف الإمام عليه السّلام ومعاوية ورأي كل منهما في الحرب، بما كتبه عليه السّلام الى أهل الأمصار يقصّ عليهم ما جرى يوم صفين:

فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لاَ يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ (٢) وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ، حَتَّى يَشْتَدَّ الأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعَهُ. فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ.

(خطبة ٥٨)

(١) المُعْورِ كمجرم: الذي أمكن من نفسه وعجز عن حمايتها، وأصله أعْوَرَ: أبدى عورته.

(٢) النائرَة بالنون الموحدة: بمعنى الثائرة بالتاء المثلثة، وأصلها من ثارت الفتنة إذا اشتعلت وهاجت.

لقاء صفين

إذا كانت وقعة الجمل قد أنهت أمر الناكثين، فإن وقعة صفين قد خلقت أعداء جدد للإمام كانوا أشدّ عليه من معاوية وأصحابه، حتى أنهم ألهوه عن معركته الأساسية ضد القاسطين، أولئك هم الخوارج.

ففي صفين، عقيب ليلة الهرير وبعد أن ظهرت علامات الإنكسار والهزيمة في جيش الشام وأدرك معاوية أن نهاية القتال ليست لصالحه وأن نهايته باتت أكيدة وقريبة، جاء الى شريكه عمرو بن العاص يستشيره فيما يجب فعله، وكان عمرو بن العاص قد حسب لهذه اللحظة حسابها وأعدّ لها خطتها، فاقترح على معاوية ما كان قد فكّر به حيث قال: «ألق الى القوم أمرا إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، أدعهم الى كتاب الله حكما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم».

وقد حدث ما توقعه ابن العاص، فما أن أبرز أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح مطالبين أهل العراق بالنزول عند حكمها حتى وقع الخلاف في جيش عليّ عليه السّلام. قال ابن ابي الحديد: «فاختلف أصحاب علي عليه السّلام في الرأي، فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة الى الكتاب ولا يحل لنا الحرب، وقد دُعينا الى حكم الكتاب،

فعنـد ذلـك بطلـت الحـرب ووضعـت أوزارها»(١)

وعلــى الفـور أدرك علــيّ عليــه السّــلام إبعـاد هـذه المؤامـرة الجديـدة، فبـادر قومــه بقولــه:

أيهـا النـاس انـي أحـق مـن أجاب الـى كتـاب الله ولكـن معاوية وعمـرو بـن العـاص، وابـن ابـي معيـط، وابـن ابـي سـرح وابـن مسـلمة، ليسـوا بأصحـاب دين ولا قـرآن، انـي أعـرَف بهـم منكـم، صحبتهـم صغـارا ورجـالا، فكانـوا شـر صغـار وشـر كبـار، َويحَكـم أنهـا كلمـة حـق يُـراد بهـا باطـل، انهـم مــا رفعوهــا انهــم يعرفونهــا ويعملــون بهــا ولكنهــا الخديعــة والوهـن والمكيـدة، أعيرونــي سـواعدكم و جماجمكـم سـاعة، فقـد بلـغ الحـق مقطعـه، ولـم يبـق إلا أن يُقطـع دابـر الذيـن ظلمـوا.

حينئــذ جــاءه عشــرون ألفــا مــن أصحابــه ونــادوه بإســمه لا بإمـرة المؤمنيـن: «يـا علــيّ أجِـب القـوم الــى كتــاب اللــه إذ دعيـن اليـه، والا قتلنـاك كمـا قتلنـا ابـن عفـان، فواللـه لنفعلنّهـا إن لـم تجبهـم». وحــاول الإمــام عليــه السّــلام إفهامهـم بــأن الأمـر كلـه خديعـة وغـدر ولكـن آذانهـم صُمّـت عـن سـماع مـا يقـول، فقالـوا: فابعـث الـى الأشـتر لياتينّـك وكان الاشـتر قـد شـارف علـى معسـكر معاويـة ليدخلـه.

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢١٠

ولـن نطيـل بذكـر مـا دار مـن الجـدال والإحتجـاج داخـل معسـكر أهـل العـراق فـإن هـذا محلـه الفصـل التالـي الـذي نتحـدث فيـه عـن الخـوارج. ولكـن مـا يهمنـا هنـا أن نقـول أن مكيـدة عمـرو بـن العـاص قـد نجحـت وتوقّـف القتـال نهائيـاً. ولـم تمـض أيـام حتـى تبيـن صـدق مـا أخبـر بـه الإمـام عليـه السّـلام مـن خديعـة معاويـة فـكان لا بـد مـن الرجـوع للحرب.

موازنـة بين القوى

وقفــة قصيــرة نحــاول فيهــا إســتيضاح مــدى إســتعداد كلا الفريقيـن لخـوض معركـة ثانيـة يكـون فيهـا الحسـم لصالـح أحـد الفريقيـن، فأيهمـا أكثـر إسـتعدادا لمثـل هـذه الحـرب، معسـكر أهـل الشـام بقيـادة معاويـة، أم معسـكر أهـل العـراق بقيـادة علـيّ عليـه السّـلام؟

بالنسـبة لمعاويـة فإنـه رجـع مـن صفيـن كمـا ذهـب اليهـا، كلـه ثقـة بنفسـه وبقومـه. وأمـا عليّـاً فإنـه عـاد بجيـش منقسـم علـى نفسـه، وقـد حـاول تنظيـم أمـوره مـن جديـد والعـودة الـى مـا كانـت عليـه أحـوال جيشـه قبـل الحـرب، ولكنـه لـم يفلـح، لأنّ الفئـة التـي خرجـت عليـه فـي صفيـن قـد اسـتمرت فـي موقفها حتـى بعـد أن تبيـن لهـا خديعـة معاويـة وضلالـه، وكانـت هـذه الفئـة - وهـي التـي تعـرف بالخـوارج - أشـد عليـه وأخطـر مـن معاويـة وأهـل الشـام، لـذا إنصـرف الإمـام عليـه السّـلام

لحربهم في الوقت الذي كان فيه معاوية يستردّ أنفاسه، ويعدّ نفسه من جديد لحرب حاسمة.

وعندما انتهى الإمام عليه السّلام من الخوارج والتفت الى معاوية من جديد كانت الظروف قد تغيرت كثيرا بالنسبة اليه. ففي الوقت الذي أنهكت فيه الحرب مع الخوارج جيشه كان معاوية يعزز إمكانياته بإستمالته بعض أصحاب الإمام عليه السّلام، وذلك بإغرائهم وترغيبهم، فكانوا يتسلّلون اليه لينضموا الى صفوفه وعندما عَلم الإمام عليه السّلام بأمر هؤلاء كتب الى عامله على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري كتابا جاء فيه:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلاَ تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غَيّاً (١) وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً. (كتاب ٧٠)

وقد فضح عليه السّلام سبب هروبهم الى معاوية فيقول في تتمة كتابه المتقدم:

وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ (٢) إِلَيْهَا،

(١) غَيّاً: ضلالاً.

(٢) مُهْطِعُون: مسرعون.

قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ ووَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقا.(كتاب ٧٠)

وأما الباقون مع الإمام عليه السّلام فإنهم لم يكونوا خيرا من المتسللين، إذ لم يكن يُرجى منهم فائدة بسبب تشبّثهم وإختلافهم في الرأي، فهم حتى غير متفقين على مقاتلة معاوية وكل فريق منهم يذهب الى رأي ويعمل على طبقه، بخلاف قوم معاوية، وقد وبّخهم الإمام عليه السّلام على ذلك وعيّرهم بقوم معاوية، فخاطبهم بقوله:

وَإِنِّي وَاللهِ لأَظُنُّ هؤُلاءِ القَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ (١) بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ في الحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ في البَاطِلِ(خطبة ٢٥)

وقال ايضاً في استنهاض اصحابه:

فَيَا عَجَباً! عَجَباً وَاللهِ يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلاَءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً (٢) حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً (٣) يُرمَى،

(١) سَيُدَالُونَ منكم: سيغلبونكم وتكون لهم الدولة بَدَلَكُمْ.

(٢) تَرَحاً بالتحريك أي: همّاً وحُزْناً.

(٣) الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهام ونحوها، فقد صاروا بمنزلة الهدف يرميهم الرامون.

يُغَـارُ عَلَيْكُـمْ وَلاَ تُغِيـرُونَ، وَتُغْـزَوْنَ وَلاَ تَغْـزُونَ، وَيُعْصَـى اللــهُ وَتَرْضَوْن.(خطبة ٢٧)

وقـد بلـغ التفـرق والتشـتت فـي جماعـة الإمـام عليـه السّـلام مبلغـا عظيمـا، حتـى كانـوا كمـا يناديهـم الإمـام عليـه السّـلام:

أَيُّهَـا النَّـاسُ، الْمجْتَمِعَـةُ أَبْدَانُهُـمْ، الْمُخْتَلِفَـةُ أَهْوَاؤُهُـمْ كَلامُكُـم يُوهِـي (١) الصُّـمَّ الصِّـلابَ (٢) وَفِعْلُكُمْ يُطْمِـعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ. (خطبة ٢٩)

بالإضافـة الـى تشـتت آرائهـم وأهوائهـم، كانـوا لا يسـتمعون الـى إمامهـم الا كفـرد منهـم، فـلا يـرون لـه حـق الطاعـة إذا أمـر، ولا الإجابـة لـه إن أراد. بينمـا فـي المقابـل فـإن قـوم معاويـة قـد بايعـوه علـى كل مـا يريـد، فـلا يناقشـوه فـي أمـر ابـدا، ومـع هـذه الحـال - لـو إسـتمرت - فـإن النصـر لمعاويـة وقومـه بـلا شـك، وبهـذا يقـول الإمـام عليـه السّـلام:

صَاحِبُكُـمْ يُطِيـعُ اللــهَ وَأَنْتُـمْ تَعْصُونَـهُ، وَصَاحِـبُ أَهْـلِ الشَّـامِ يَعْصِـي اللــهَ وَهُـمْ يُطِيعُونَه.(خطبـة ٩٦)

ونخلص من هذه الفقرة بأن معاوية يتفوق بنقطتين:

(١) يُوهي: يُضعف ويُفَتِّت.

(٢) الصمّ: جمع أصم، وهو من الحجارة الصّلْبُ المُصْمَت، والصِلاب: جمع صليب، والصليب: الشديد، وبابه ظريف وظِراف، وضعيف وضِعاف.

الأولى: هي إجتماع قومه وإتفاقهم على حرب أهل الكوفة.

والثّانية: هي إطاعتهم العمياء له. بينما الإمام عليه السّلام يفتقر الى هذين الأمرين، وهو يدرك مدى خطورتهما، لذلك تمنّى لو ان معاوية يستبدله بقومه كل عشرة منهم بواحد من أهل الشام، قال عليه السّلام:

لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُم.

(خطبة ٩٦)

وبعد هذا فأي مجال يبقى للبحث عن مدى إحتمالات النصر لدى كل من الفريقين؟

إستفزازات معاوية

هذا الوضع الذي شرحه الإمام عليه السّلام قد أدركه معاوية أيضا، لذلك سقطت هيبة الإمام عليه السّلام وقومه عنده، وزالت خشيتهم من قلبه، لذلك لم يكن يتحرّج من إستفزازهم كلما اراد، فيعقد الألوية ويرسلها لضرب كل من يدين لعليّ بالطاعة، وكان عليه السّلام يتوقع من معاوية ذلك، فأمر قومه بإستباق معاوية وغزوه قبل أن يغزوهم، ولكنه قد ابتُلى بمن لا يطيع، وبعد غزو الأنبار من قِبل عمّال معاوية، ذكّرهم عليه السّلام بما كان قد أشار عليهم

بـه، فقـال:

أَلاَ وَإِنِّـي قَـدْ دَعَوْتُكُـمْ إِلَـى قِتَـالِ هـؤُلاَءِ القَـوْمِ لَيْـلاً وَنَهَـاراً، وَسِـرّاً وَإِعْلاَنـاً، وَقُلْـتُ لَكُـمُ اغْزُوهُمْ قَبْـلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَـا غُـزِيَ قَـوْمٌ قَـطُّ فـي عُقْـرِ دَارِهِـمْ إِلاَّ ذَلُّـوا، فَتَوَاكَلْتُـمْ (١) وَتَخَاذَلْتُـمْ حَتَّـى شُـنَّتْ عَلَيْكُـمُ الغَـارَاتُ وَمُلِكَـتْ عَلَيْكُـمُ الأَوْطَانُ.(خطبـة ٢٧)

قـال ابـن ابـي الحديـد: بعـث معاويـة بسـر بـن ارطـأة الـى اليمـن فـي جيـش كثيـف، وأمـره ان يقتـل كل مـن كان فـي طاعـة علـيّ عليـه السّـلام. فقتـل خلقـا كثيـرا.(٢)

كان لمعاويـة غـزوات كثيـرة علـى أطـراف البلـدان التـي تدين بالطاعـة لعلـيّ، ولسـنا هنـا فـي معـرض إسـتقصائها بأجمعها، بـل نقتصـر منهـا علـى الغـزوات التـي نجـد فـي نهـج البلاغـة تعليقـا عليهـا، فمـن هـذه الغـزوات تلـك التي كانت علـى اليمن، وقـد علـم الإمـام عليـه السّـلام بشـأن هـذه الغـزوة قبـل وصـول الجيـوش المُغيـرة الـى اليمـن، فقـام خطيبـا فـي قومـه وقال:

(١) تواكلتم: وكَلَ كل منكم الامر إلى صاحبه، أي لم يتولّهُ أحد منكم، بل أحاله كلٌّ على الاخر.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٣٤٠

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ ...(خطبة ٢٥)

الى آخر كلامه في محاولة لحثهم على أن ينفروا الى اليمن لملاقاة الجيوش المُغيرة، ولكن دون جدوى.

وغزوة أخرى لمعاوية كانت على الأنبار، ذكرها ابن ابي الحديد، فقال: أرسل معاوية الى سفيان بن عوف الغامدي وقال له: إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جندا فأغر عليهم، والا فامضِ حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جندا فامضِ حتى توغل في المدائن... فأقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، واضرب كل من مررت به من القرى، وأحرب الأموال، فان حرب الاموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب.(١)

ونفّذ سفيان ما أمره به مولاه، وزاد من عنده، فعاد الإمام عليه السّلام يخطب قومه طالباً منهم التحرك وعارضا أفعال معاوية، فيقول:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٨٥

وَهـذَا أَخُـو غَامِـد قَـدْ وَرَدَتْ خَيْلُـهُ الأَنْبَـارَ وَقَـدْ قَتَـلَ حَسَّـانَ بْـنَ حَسَّـانَ البَكْـرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُـمْ عَـنْ مَسَـالِحِهَا (١)، وَلَقَـدْ بَلَغَنِـي أَنَّ الرَّجُـلَ مِنْهُـمْ كَانَ يَدْخُـلُ عَلَـى المَـرْأَةِ المُسْـلِمَةِ، وَالأُخْـرَى المُعَاهَـدَةِ (٢) فَيَنْتَـزِعُ حِجْلَهَـا (٣) وَقُلْبَهَـا (٤) وَقَلاَئِدَهَـا، وَرِعَاثَهَـا (٥) مـا تَمْتَنِـعُ مِنْـهُ إِلاَّ بِالاسْـتِرْجَاعِ وَالاِسْـتِرْحَامِ ثُـمَّ انْصَرَفُـوا وَافِرِيـنَ مَـا نَـالَ رَجُـلاً مِنْهُـمْ كَلْـمٌ (٦) وَلاَ أُرِيـقَ لَهُـمْ دَمٌ.(خطبـة ٢٧)

ولكـن موقـف قومـه لـم يكـن بأفضـل ممـا سـبق، فبـدل أن تثير هـذه الغـارات فيهـم الحمـاس لمجابهـة معاويـة، كانـت علـى العكـس مـن ذلـك تثيـر فـي أنفسـهم الرّعـب والخـوف، فأخـذوا يلـوذون الـى معاويـة، ويلتجئـون اليـه خوفـا مـن سـيفه، تمامـا كمـا أراد معاويـة وكمـا توقـع، فنجـده يقـول فـي حديثه السـابق لسـفيان: «إن هـذه الغـارات يـا سـفيان علـى أهـل العـراق

(١) المسالِحُ: جمع مَسْلَحَة بالفتح: وهي الثغر والمَرْقب حيث يُخشى طروقُ الاعداء.

(٢) المعاهَدَة: الذميّة.

(٣) الحِجْل بالكسر و بالفتح و بكسرين: الخلخال.

(٤) القُلُب بضمتين: جمع قُلْب بالضم فسكون: السوار المُصْمَت.

(٥) الرعاث جمع رَعثة وهو: ضرب من الخرز.

(٦) الكَلْم بالفتح: الجرح.

ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر».

وإنصافا لأهل العراق يجب ان نشير هنا الى ان موقفهم المتخاذل مع الإمام عليه السّلام، كان وليد ظروف قاهرة أرغمتهم على ذلك، وإلا فليس من طباعهم الجبن والخوف، فهم كانوا من أشد الناس معه يوم الجمل، ولقد اعترف لهم بجميلهم عندما أرسل اليهم كتابا يشكرهم فيه، كما قدّمنا. وكذلك في حرب صفين ضد معاوية، وقد كادوا يحققون النصر النهائي بسيوفهم العنيدة لولا خديعة معاوية، ونفس الموقف وقفوه معه يوم النهروان عندما قضى على الخوارج بهم. ولكن هذه الحروب المتكررة قد أرهقتهم وأتعبتهم، لذلك كانوا يتهربون من الحرب مجددا، وهذا ما أدركه عليه السّلام فيهم، ولذا قال:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْري مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهَكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُون.

(خطبة ٢٠٨)

وبالنتيجة، لم يتمكن الإمام عليه السّلام من تهيئة جيش

يسير فيه الى أهل الشام، بالرغم من انه قضى بقية حياته في حثّ قومه على تنفيذ ما طلبه منهم، وكان يتألم لذلك أشد الألم حتى انه قال في قومه:

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّى.(خطبة ٢٥)

وقال في سَحَرة، اليوم الذي ضرب فيه:

مَلَكَتْنِي عَيْنِي (١) وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ (٢) لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: يَا رَسُولَ اللهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ»، فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي.(خطبة ٦٩)

هذا ما كان من أمر القاسطين، معاوية وأصحابه، وأما المارقون الذين أنجبتهم حرب صفين، فالحديث عنهم في الفصل التالي.

(١) مَلَكَتْني عَيْني: غلبني النوم.
(٢) سنح لي رسول الله: مرّبي كما تسنح الظباء والطير.

الفصل العاشر:
المارقون

المارقـون هـم الخـوارج، وهـم الفئـة الثّالثـة التـي أُمـر عليـه السّـلام بقتالهـا.

عودة الى صفين

فـي ذلـك اليـوم مـن صفيـن، وعقيـب ليلـة الهريـر الشـهيرة، كان بـزوغ الخـوارج، أولئـك الذيـن حوّلـوا النّصـر الوشـيك للإمـام الـى هزيمـة، عندمـا رُفعـت المصاحـف فـي صفـوف أهـل الشـام بإشـارة مـن عمـرو بـن العـاص لمـا رأى الاشـتر علـى مشـارف معسـكر صاحبـه معاويـة.

أظهـرَ أهـل الشـام الدعـوة الـى حكـم القـرآن لإنهـاء القتـال، فحمـل الخـوارج هـذا الشـعار وجـاؤوا عليـا يطالبونـه بالنّزول عنـد حكـم القـرآن، وقـد حـاول عليـه السّـلام إقناعهـم بـأن القـوم ليسـوا أهـل قـرآن وإنمـا هي خديعـة ولكـن دون جدوى، فالتفّـوا حولـه وهددوه بـأن ينقلبـوا عليـه اذا لـم يوقـف القتـال فـورا، فإضطـر عليـه السّـلام للنـزول عنـد رغبتهـم كارهـاً مضطـراً، وقـد ذكّرهـم عليـه السّـلام بموقفـه وموقفهـم مـن رفـع المصاحـف، بعـد ان تبيّنـت الخديعـة، فقـال :

أَلَـمْ تَقُولُـوا عِنْـدَ رَفْعِهِـمُ الْمَصَاحِـفَ حِيلَـةً وَغِيلَـةً وَمَكْـراً وَخَدِيعَـةً: إِخْوانُنَـا وَأَهْـلُ دَعْوَتِنَـا، اسْـتَقَالُونَا وَاسْـتَرَاحُوا إِلَـى كِتَـابِ اللـهِ سُـبْحَانَهُ، فَالـرَّأْيُ الْقَبُـولُ مِنْهُـمْ وَالتَّنْفِيـسُ عَنْهُـمْ؟ فَقُلْـتُ لَكُـمْ: هذَا أَمْـرٌ ظَاهِـرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُـهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُـهُ رَحْمَـةٌ، وَآخِـرُهُ نَدَامَـةٌ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَـأْنِكُمْ، وَالْزمُوا طَرِيقَتَكُـمْ، وَعَضُّـوا عَلَـى الْجِهَـادِ بِنَوَاجِذِكُـمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِـقٍ نَعَـقَ: إِنْ أُجِيـبَ أَضَـلَّ، وَإِنْ تُـرِكَ ذَلَّ.(خطبـة ١٢١)

وبعـد توقّـف القتـال كتـب معاويـة الـى علـيّ عليـه السّـلام كتابـا جـاء فـي جملتـه:

وقـد دعوتكـم الـى أمـر لنـا ولـك فيـه حيـاة وعـذر، أن نحكّـم بينـي وبينـك حَكَمين مرضيّين، أحدهما مـن أصحابي والآخر مـن أصحابـك، فيحكمـان بيننـا بمـا أنـزل اللـه (١)

ووافـق علـيّ عليـه السّـلام علـى طلـب معاويـة، فبعـث جماعة مـن قـرُّاء أهـل العـراق، وبعـث معاوية جماعـة من قُـرّاء أهل الشـام، فاجتمعـوا وتدارسـوا أمرهـم، وعـاد كل فريـق الـى قومـه، أمـا قُـرّاء أهـل الشـام فأعلنـوا انهـم اختـاروا عمـرو بن العـاص ليكـون الناطـق بإسـمهم، وأمـا أهـل العراق فقـد عيّنوا أبـو موسـى الأشـعري لهـذه المهمـة. وبالطبـع لم يوافـق الإمام عليـه السّـلام علـى هـذا الإختيـار بسـبب موقف الأشـعري

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٢٥

المعادي للإمام عندما استنفر أهل الكوفة للّحاق به لحرب الجمل، وقد بين عليه السّلام لهم ذلك فقال:

أَلاَ وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَاخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ، وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بَعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْس بِالأَمْسِ يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ (١) فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَه، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَهُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ.(خطبة ٢٣٦)

ولكن جماعة القراء رفضوا عبد الله بن عباس، فاقترح عليهم الأشتر، ولكنهم رفضوا أيضاً وأصّروا على الأشعري، حينئذ وافق الإمام عليه السّلام مكرهاً غير مختار.

وبعد أن تمت موافقة الفريقين على الأشعري وابن العاص، كتب أهل العراق وأهل الشام كتابا يقرّرون فيه ما اتّفقوا عليه، وكان من جملته النص على الموادعة وترك القتال سنة كاملة، يجب على الحكمين خلالها أن يجتمعا ويحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه.

(١) شِيموا سيوفكم: أغمدوها ولا تقاتلوا.

وعندما تمّ الكتاب وشهد عليه الشهود، حمله الاشعث ومرَّ به على صفوف أهل الشام يقرؤه عليهم، فوافقوا عليه بأجمعهم، ثم قرأه على أهل العراق، فوافق أكثرهم، ولكن من بين الصفوف خرجت كلمة تدل على الرفض، فكان لها ما بعدها، وهي «لا حُكم إلا لله».

لا حُكم إلا لله

كلمة مبطّنة تحمل الدّعوة إلى الفوضى، وقد أوضح عليه السّلام ما يريده هؤلاء بإطلاق هذه الكلمة، فقال:

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلاَّ للهِ، ولكِنَّ هؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ.(خطبة ٤٠)

فمقصودهم بالحكم هو الإمرة، فهم يدعون الى ترك الناس يرعون شؤونهم بأنفسهم دون أن يكون هناك سلطة تحكمهم، فكانوا يريدون عزل عليّ عليه السّلام ومعاوية وترك الناس وشأنهم، وهذه الفكرة لازَمَت دعوتهم الى الوقت الذي اتفقوا فيه على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص. وقد تمكّنوا من عليّ عليه السّلام بينما جُرح معاوية، ونجا ابن العاص بأعجوبة أو باتفاق. وقد أدرك عليه السّلام أبْعاد هذه الدعوة وخطورتها، ونبّه أصحابه الى مغزاها، وحذّرهم من تجاهل معتنقيها، حتى قال:

أَلاَ مَـنْ دَعَـا إِلَـى هـذَا الشِّـعَارِ فَاقْتُلُـوهُ، وَلَـوْ كَانَ تَحْـتَ عِمَامَتِـي هذِهِ.(خطبـة ١٢٧)

والخـوارج عندمـا طرحـوا هـذا الشـعار أوضحـوا مرادهـم فيـه، حيـث اتبعـوه بقولهـم: الحكـم للـه يـا علـيّ لا لـك، لا نرضـى بـأن يحكـم الرجـال فـي دين اللـه، وإن الله قد أمضى حكمـه فـي معاويـة وأصحابـه أن يُقتلوا أو يدخلـوا تحت حكمنا عليهـم (١).

وردّ عليه السّلام على مغالطتهم بقوله:

إِنَّـا لَـمْ نُحَكِّـمِ الرِّجَـالَ، وَإِنَّمَـا حَكَّمْنَـا الْقُـرْآنَ. وهـذَا الْقُـرْآنُ إِنَّمَـا هُـوَ خَـطٌّ مَسْـتُورٌ بَيْـنَ الدَّفَّتَيْـنِ لاَ يَنْطِـقُ بِلِسَـانٍ، وَلاَ بُـدَّ لَـهُ مِـنْ تَرْجُمَـانٍ، وَإِنَّمَـا يَنْطِـقُ عَنْـهُ الرِّجَالُ.(خطبـة ١٢٥)

سخرية الموقف

أصحـاب الإمـام عليـه السّـلام الذين فرضـوا عليه وقـف القتال بعـد أن أوشـك علـى النصـر، والذيـن أجبـروه علـى تحكيـم الأشـعري، عـادوا وغيّـروا رأيهـم فـي الموضـوع، وأرادوا مـن الإمـام عليـه السّـلام أن يجيبهـم الى رأيهـم الجديـد، فقالوا: قد كنـا زللنـا وأخطأنـا حيـن رضينـا بالحكميـن، وقـد بـان لنـا زللنـا وخطؤنـا فرجعنـا الـى اللـه وتبنـا، فارجـع انـت يـا علـيّ

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٣٨

كما رجعنا، وتب الى الله كما تبنا، وإلا برئنا منك (١).

فسخرية الموقف هي في أنهم بعد أن فرضوا رأيهم على الإمام عليه السّلام في الرجوع عن القتال وقبول التحكيم، عادوا يفرضون عليه أن ينبذ التحكيم ويعترف على نفسه بالخطأ والكفر، والتوبة من ذلك. ولكن الإمام عليه السّلام رفض منهم كلا الأمرين، فهو عندما قبل بالتحكيم بعد إصرارهم عليه كان يتنازل عن حقّ من حقوقه وكذلك عندما رضي بشخص أبي موسى، ولكن الموقف الآن تغيّر، فليس بإمكانه أن ينكث ما اتفق عليه مع القوم ولذلك أجابهم: ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع، حتى ان بعض أصحابه خاطبه بقوله:

نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها، فما ندري أيّ الامرين أَرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الاخرى ثمّ قال: هذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ.(خطبة ١٢٠)

كما أنه يستحيل عليه الإعتراف على نفسه بالكفر كما يريدون لأنه كما قال موبخاً لهم:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٣٨

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ (١) وَلاَ بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ، أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ.(خطبة ٥٧)

فكيف يعترف على نفسه بالكفر من وُلد على الفطرة وسبق الى الإيمان والهجرة؟ ولكنه عندما رأى إصرارهم على طلبهم حاول الاحتجاج عليهم من ناحية أخرى فخاطبهم بقوله:

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البَرَاءةِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ

(١) الحاصِبُ: ريح شديدة تحمل التراب والحصى، والجملة دعاء عليهم بالهلاك.

سَـهْمَـهُمْ مِـنَ الإِسْـلاَمِ، وَلَـمْ يُخْـرِجْ أَسْـمَاءَهُمْ مِـنْ بَيْـنِ أَهْلِـهِ.

(خطبة ١٢٧)

فالخـوارج رأوا انّ الإعتـراف بالتحكيـم معصيـة كبيـرة، واعتقـدوا أن فاعـل الكبيـرة يُعـد كافـرا، لذلـك إدّعـوا عليـه بالكفـر وطلبـوا منـه الإعتـراف بذلـك ثـم التوبـة.

وفـي إحتجاجـه عليهـم هنـا يناقشـهم فـي هـذه القاعـدة التـي يتمسّـكون بهـا، فجاءهـم بالأدلـة علـى انّ فاعـل المعصيـة الكبيـرة ليـس كافـرا، لذلـك كنـا نـرى النبـيّ صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم يرجـم الزانـي المحصـن ثـم يصلـي عليـه ويـورث أهلـه، ويقتـل القاتـل ثـم يـورث أهلـه كذلـك، وكان يقطـع يـد السـارق، ويجلـد الزانـي غيـر المحصـن ثـم يقسـم عليهمـا مـن فـيء المسـلمين ويسـمح لهمـا بالتزويـج مـن بناتهـم.

فهـؤلاء جميعـا قـد فعلـوا الكبائـر وكان النبـي يعاقبهـم علـى ما فعلـوه دون أن يخرجهـم عن الإسـلام. وكأنمـا يريد الإمام عليه السّـلام أن يقـول: علـى فـرض التسـليم بأنـي قبلـت الحكومـة، وبعـد القـول بأنهـا معصيـة كبيـرة فإنهـا لا تسـتلزم الكفـر، لأن فاعـل الكبيـرة ليـس كافـرا كمـا اتّضح.

هـذا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى اذا كان الإمـام قـد أخطـأ وضـلّ بسـبب التحكيـم فمـا ذنـب بقيـة المسـلمين التابعيـن لـه حتـى يقتلهـم الخـوارج ويمثّلـوا بهـم كمـا فعلـوا مـع كثيريـن؟

إجتماع الحَكَمَين

كان عليه السّلام يدرك بأن اجتماع الحكمين لن يؤدي الى نتيجة، ولكن مع ذلك ترك الأمور لمسارها عسى أن يهتدي قومه مع الوقت ويصلح أمر الأمة، لذلك نرى انه قد أعطى مدة سنة كاملة للحكمين يجتمعان خلالها، فقال:

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ، وَلاَ تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا (١) فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ.

(خطبة ١٢٥)

وكيف يمكن أن يأمل عليه السّلام من تحكيم الأشعري خيرا، وقد علم موقفه منه منذ حرب الجمل، حتى الخوارج لم يختاروه إلا لعلمهم بعدم ميله لعليّ، فيوم صفين عندما طرح عليه السّلام إسم ابن عباس للتحكيم، كان جواب الخوارج: «لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر» (٢).

(١) الاكظام جمع كَظَم محركة: مخرج النفس.والاخذ بالاكظام: المضايقة والاشتداد بسلب المهلة.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٢٨

فحَكَم أهل العراق ميله الى الطرفين على حد سواء، ان لم يكن الى معاوية أقرب، بينما حَكَم أهل الشام يتفانى في سبيل معاوية ضد عليّ، فأي عدل يمكن أن ينجم عنهما بعد هذا؟

إجتمع الحكمان في دومة الجندل للتباحث، وإستمر لقاءهما مدة من الزمن، تمكن خلالها إبن العاص من إكتساب ثقة الأشعري بالمخادعة والمراوغة، فكان عندما يخاطبه يبدأ بقوله: يا صاحب رسول الله، وكان يعطيه صدر المجلس دائما ويقدّمه للصلاة، ولا يتكلم قبله، والى ما شاكل ذلك.

كانت فكرة الأشعري التي جاء بها أن يعزل كلاً من عليّ ومعاوية ويولّي على المسلمين عبدالله بن عمر، وذلك بقصد إحياء سيرة عُمر بن الخطّاب من جديد. ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك، فإقترح ابو موسى شيئا آخر وهو عزل الإثنين معا وترك الأمر شورى بين المسلمين، يختارون لأنفسهم من شاءوا. وتم الإتفاق على ذلك، وعندما أرادا إعلانه للناس قدّم عمرو بن العاص الأشعري للتكلم قبله كالعادة، فاعتلى المنبر وقال من جملة كلامه:

«قد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع عليّ ومعاوية، وان يُستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين، يولّون

أمورهم من أحبوا، واني خلعت عليا ومعاوية، فاستقبلوا أموركم وولّوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا».

ثم تبعه عمرو بن العاص فاعتلى المنبر وقال: «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وانا أخلع صاحبه وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة» (١)

وباء أمر الحكمين بالفشل، إذ تركا القرآن وحكما برأيهما، فعاد الإمام عليه السّلام يذكّر قومه بما كان يراه منذ البداية، موضحاً رأيه في التحكيم، حيث قال:

فَإِنَمَّا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتَرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُم، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ لاَأَبَا لَكُمْ بُجْرا (١) وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.(خطبة ١٢٧)

وقال أيضا في هذا الشأن:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٥٥

فأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكمْ عَلَى أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا (٢) عِنْدَ الْقُرْآنِ، ولاَ يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ (٣) فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالإِعْوِجَاجُ دَأْبَهُمَا، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا، وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.(خطبة ١٧٧)

فالإمام عليه السّلام يُعلن صريحا رفضه لما جاء به الحكمان، وذلك لأن شرط تحكيمهما كان أن يعملا بالقرآن وسنة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، لا يتجاوزان ذلك، ولكنهما حكما تبعاً لأهوائهما، فلا حرج بعد هذا أن يرفض الإمام عليه السّلام حكمهما.

نهاية المطاف مع الخوارج

عندما فشل الحكمان وانتهت الهدنة، قرر الإمام عليه السّلام المسير الى معاوية من جديد، ولكن الخوارج كانوا

(١) البُجْر بضم الباء: الشر والامر العظيم.

(٢) يُجَعْجِعَا: من جعجع البعير إذا برك، ولزم الجَعْجاع أي الارض، أي أن يقيما عند القرآن.

(٣) والتبع محركاً: التابع، للواحد والجمع.وتاها: أي ضلاً

يشكّلون خطرا حقيقيا على الكوفة فيما لو خرج رجالها لحرب معاوية. وقد كان تجمُّع الخوارج في منطقة تبعد ميلين من الكوفة تدعى الحرورية، فرأى إنهاء أمرهم قبل التوجّه الى معاوية، وكان عليه السّلام يعلم يقينا بأن مصيرهم على يديه، وأنه لن ينجو منهم عشرة، فنراه وقد جاءه بعض أصحابه يخبرونه بأن القوم قد عبروا النهر، يقول:

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ. (خطبة ٥٨)

وهكذا كان، فقد قُتل من أصحاب علي عليه السّلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية، ولكن تلك كانت نهايتهم مؤقتا، والا فإنهم باقون في أصلاب الرجال، وسيأتي يوم يظهرون فيه من جديد، لذلك قال عند نهاية المعركة وقد أخبره أصحابه بأن القوم هلكوا بأجمعهم:

كَلاَّ وَاللهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ (١) كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ (٢) حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ.(خطبة ٥٩)

ويبقى أن نقول: انّ الخوارج بالرغم من ضلالهم فإنهم

(١) قَرَارات النساء: كناية عن الارحام.
(٢) كُلّما نَجَمَ منهم قَرْنٌ قُطِعَ: كلما ظهر أوطلع منهم رئيس قُتل

كانـوا خيـرا مـن معاويـة، لذلـك أوصـى الإمـام عليـه السّـلام بعـدم قتالهـم مـن بعـده مبـررا ذلـك بقولـه:

لاَ تَقْتُلُـوا الْخَـوَارِجَ بَعْـدِي، فَلَيْـسَ مَـنْ طَلَـبَ الْحَـقَّ فَأَخْطَـأَهُ، كَمَـنْ طَلَـبَ الْبَاطِـلَ فَأَدْرَكَـهُ .(خطبـة ٦٠)

فهـو انمـا قاتلهـم لأنهـم خرجـوا عليـه ونقضـوا بيعتـه، فـكان مـن واجبـه قتالهـم وردّهـم الـى طاعتـه، وأمـا بعد وفاتـه فليس علـى المسـلمين ان يحملـوا عـبء قتالهـم، والإمام عليه السّـلام يقـارن بينهـم وبيـن معاويـة، فهم قـد طلبوا الحق ولكـن أخطأوا طريقـه، بينمـا معاويـة كان يعـرف الحـق ولكنـه كان يرفضـه ويسـعى الـى الباطـل وقـد أدركـه، فهـو شـر منهـم لذلـك أمـر قومـه بقتالـه مـن بعـده، فقـال موصيـا لهـم:

أمـا إِنِّـهُ سِـيَظْهَرُ عَلَيْكُـمْ (١) بَعْـدِي رَجُـلٌ رَحْـبُ الْبُلْعُـومِ (٢) مُنْدَحِـقُ الْبَطْـنِ (٣) يَـأْكُلُ مَـا يَجِـدُ، وَيَطْلُـبُ مَـا لاَ يَجِـدُ، فَاقْتُلُـوهُ، وَلَـنْ تَقْتُلُوهُ.(خطبـة ٥٦)

ثـم يتنبـأ عليـه السّـلام بمـا سـيكون عليـه أمـر الخـوارج مـن بعـده، فيخاطبـم قائـلا:

(١) سيَظْهَرُ عليكُم: سيغلب.

(٢) رَحْبُ البُلْعُوم: واسعُهُ.

(٣) مُنْدَحِقُ البَطْن: عظيم البطن بارزه، كأنه لِعِظَمِهِ مُنْدلقٌ من بدنه يكاد يَبينُ عنه، وأصل «اندحق» بمعنى انزلق.

أَمَـا إِنَّكُـمْ سَـتَلْقَوْنَ بَعْـدِي ذُلاًّ شَـامِلاً، وَسَـيْفاً قَاطِعـاً، وَأَثَـرَةً (١) يَتَّخِذُهَاالظَّالِمـونَ فِيكُـمْ سُـنَّةً.(خطبة ٥٦)

فهـو يخبرهـم بذلـك بعـد أن درس حالهـم وعـرف طباعهـم، فهـم ثـاروا عليـه لانهـم اتهمـوه بالكفـر، وهـم مسـتمرون فـي سـيرتهم مـن رفـض كل مـا يعتقدونـه معصيـة تسـتلزم الكفـر، وكان عليـه السّـلام يـدرك انّ الأيـدي التـي ستتسـلم الخلافة من بعـده سـتكون أيـدٍ ظالمـة تحكـم بغير الحـق، ولذا سـيثور عليها الخـوارج، وبالطبـع فالحـكام لـن يسـكتوا عنهـم بدورهـم، بـل سـيطاردوهم ويقتلوهـم أينمـا وُجـدوا، ولعـل هـذا مـن أسـباب وصيـةّ الإمـام عليـه السّـلام بعـدم قتالهـم.

ولكـن هـؤلاء الذيـن تواصـى الإمـام عليـه السّـلام بهـم لـم يتواصـوا بـه، فغـدروا بـه وهـو يصلّـي بالنـاس.

وبهـذا نأتـي الـى نهايـة مطافنـا مـع موضـوع مـن أهـم المواضيـع التـي تمـسّ المسـلمين بشـكل مباشـر موضـوع الخلفـاء والخلافـة، وذلـك بما اسـتفدناه من كلام أميـر المؤمنين علـيّ بـن ابـي طالـب عليـه السّـلام. ولنـا لقـاء قريـب آخـر إن شـاء اللـه مـع علـيّ عليـه السّـلام ومـع موضـوع آخـر لا يقـل أهميـة، إذ يتنـاول «الطبقـات الاجتماعيـة» وذلـك مـن خـلال نهـج البلاغـة.

(١) الاثَرة: الاستبداد بفوائد الملك.

الفهرس الموضوعي

لكلمات نهج البلاغة الواردة في هذا الكتاب

الخلافة والخلفاء

لاَ بُـدَّ لِلنَّـاسِ مِـنْ أَمِيـر بَـرّ أَوْ فَاجِر، يَعْمَـلُ فِي إِمْرَتِـهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْـتَمْتِعُ فِيهَـا الْكَافِـرُ، وَيُبَلِّـغُ اللـهُ فِيهَـا الأَجَـلَ، وَيُجْمَـعُ بِـهِ الْفَـيءُ، وَيُقَاتَـلُ بِـهِ الْعَـدُوُّ، وَتَأْمَـنُ بِـهِ السُّـبُلُ، وَيُؤْخَـذُ بِـهِ لِلضَّعِيـفِ مِـنَ الْقَـوِيِّ، حَتَّـى يَسْـتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْـتَرَاحَ مِـنْ فَاجِر (خطبـة ٤٠)

وَمَـكَانُ الْقَيِّـمِ بِالأَمْـرِ مَكَانُ النِّظَام مِـنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُـهُ وَيَضُمُّهُ، فَـإِنِ انْقَطَـعَ النِّظَـامُ تَفَـرَّقَ وَذَهَـبَ، ثُـمَّ لَـمْ يَجْتَمِـعْ بِحَذَافِيـرِهِ أَبَداً (خطبة ١٤٦)

السُّلْطَانُ وَزَعَة اللهِ فِي أَرْضِهِ (حكمة ٣٢٣)

لاَ يَنْبَغِـي أَنْ يَكُـونَ عَلَـى الْفُـرُوجِ وَالدِّمَـاءِ وَالمَغَانِـمِ وَالاَحْـكَامِ وَإِمَامَـةِ الْمُسْـلِمِينَ الْبَخِيـلُ، فَتَكُـونَ فِـي أَمْوَالِهِـمْ نَهْمَتُـهُ وَلاَ الْجَاهِـلُ فَيُضِلَّهُـمْ بِجَهْلِـهِ، وَلاَ الْجَافِـي فَيَقْطَعَهُـمْ بِجَفَائِـهِ، وَلاَ الجَائِـفُ لِلـدُّوَلِ فَيَتَّخِـذَ قَوْماً دُونَ قَـوْم، وَلاَ الْمُرْتَشِـي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَـبَ بِالْحُقُـوقِ وَيَقِـفَ بِهَـا دُونَ المَقَاطِـعِ وَلاَ الْمَعطِّـلُ لِلسُّـنَّةِ

فَيُهْلِـكَ الأُمَّـةَ (خطبـة ١٣١)

لاَ يُقِيـمُ أَمْـرَ اللـهِ سُـبْحَانَهُ إِلاَّ مَـنْ لاَ يُصَانِـعُ وَلاَ يُضَـارِعُ وَلاَ يَتَّبِـعُ الْمَطَامِـعَ (حكمـة ١٠٥)

إِنَّ اللـهَ تَعَالَـى فَـرَضَ عَلـى أَئِمَّـةِ الْعَـدْلِ أَنْ يُقَـدِّرُوا أَنْفُسَـهُمْ بِضَعَفَـةِ النَّـاسِ، كَيْـلاَ يَتَبَيَّـغَ بِالْفَقِيـرِ فَقْـرُهُ (خطبـة ٢٠٩)

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ (حكمة ١٦٦)

واللـه لَهِـيَ أَحَـبُّ إِلـيَّ مـن إِمرتكـم، إِلاّ أَن أُقيـم حقّـاً، أَو أَدفـع باطـلاً (خطبـة ٣٣)

لمن كانت الوصية؟

إِنَّ الأَئِمَّـةَ مِـنْ قُرَيـش غُرِسُـوا فِـي هـذَا الْبَطْـنِ مِـنْ هَاشِـم، لاَ تَصْلُـحُ عَلَـى سِـوَاهُمْ، وَلاَ تَصْلُـحُ الْـوُلاَةُ مِـنْ غَيْرِهِـمْ (خطبـة ١٤٤)

أَمَـا وَاللـه لَقَـدْ تَقَمَّصَهـا فُـلاَنٌ، وَإِنَّـهُ لَيَعْلَـمُ أَنَّ مَحَلِّـيَ مِنهَـا مَحَـلُّ القُطْـبِ مِـنَ الرَّحَـا (خطبـة ٣)

لَقَـدْ عَلِمْتُـمْ أَنَّـي أَحَـقُّ بِهَا مِـنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسْـلِمَنَّ مَاسَـلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْـلِمِينَ (خطبة ٧٣)

وَقَـال قَائِـلٌ: إِنَّـكَ يابْـنَ أبِـي طَالِـب عَلَـى هـذَا الأَمْـرِ لَحَرِيـصٌ. فَقُلْـتُ: بَـلْ أَنْتُـمْ وَاللـهِ أَحْـرَصُ وَأَبْعَـدُ، وَأَنَـا أَخَـصُّ وَأَقْـرَبُ، وَإِنَّمَـا طَلَبْـتُ حَقّـاً لِـي وَأَنْتُـمْ تَحُولُـونَ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ، وَتَضْرِبُونَ

وَجْهِـي دُونَـهُ، فَلَمَّـا قَرَّعْتُـهُ بِالْحُجَّـةِ فِـي الْمـلاءِ الْحَاضِرِيـنَ هَـبَّ كَأَنَّـهُ بُهِـتَ لاَ يَـدْرِي مَـا يُجِيبُنِـي بِـهِ (خطبـة ١٧٢)

وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي (خطبة ١٧٢)

فَجَـزَتْ قُرَيْشـاً عَنِّـي الْجَـوَازِي، فَقَدْ قَطَعُـوا رَحِمِي، وَسَـلَبُونِي سُـلْطَانَ ابْـنِ أُمِّـي (كتاب ٣٦)

فلمَّـا مَضـى صلـى اللـه عليـه وآلـه تنَـازَعَ الْمُسْـلِمُونَ الأَمْـرَ مِـنْ بَعْـدِهِ، فَوَاللـهِ مَـا كَانَ يُلْقَـى فِـي رُوعِـي وَلاَ يَخْطُـرُ بِبَالِـي، أَنَّ الْعَـرَبَ تُزْعِـجُ هـذَا الأَمْـرَ مِـنْ بَعْـدِهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه عَـنْ أَهْـلِ بَيْتِـهِ، وَلاَ أَنَّهُـمْ مُنَحُّـوهُ عَنِّـي مِـنْ بَعْـدِهِ (كتـاب ٦٢)

لَهُـمْ خَصَائِـصُ حَـقِّ الوِلايَـةِ، وَفِيهِـمُ الوَصِيَّـةُ وَالوِرَاثَةُ (خطبة ٢)

المؤامرة الكبرى

قالـوا: لمّـا انتهـت إلـى أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام أنبـاء السـقيفة بعـد وفـاة رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وآلـه، قَـال عليـه السـلام: مـا قالـت الانصـار؟ قالـوا: قالـت منـا أميـر ومنكـم أميـر. قَـال عليـه السـلام: فَهَـلاَّ احْتَجَجْتُـمْ عَلَيْهِـمْ بِـأَنَّ رَسُـولَ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه وَصَّـى بِـأَنْ يُحْسَـنَ إِلَـى مُحْسِـنِهِمْ، وَيُتَجَـاوَزَ عَـنْ مُسِـيئِهِمْ؟ قالـوا: ومـا فـي هـذا مـن الحجّـة عليهـم؟ فقَـال عليـه السـلام: لَـوْ كَانَـتِ الامـارة فِيهِـمْ لَـمْ تَكُـنِ الْوَصِيَّـةُ بِهِـمْ. ثـم قـال: فَمَـاذَا قَالَـتْ قُرَيْـشٌ؟ قالـوا:

احتجت بأَنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله. فقَال عليه السلام: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ (خطبة ٦٦)

وَاعَجَبَاهُ! أَتَكُونُ الْخِلاَفَةَ بِالصَّحَابَةِ وَلا تَكُونُ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ؟ وروي له شعر في هذا المعنى، وهو:)

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ * فَكَيْفَ بِهذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ)

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ * فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيّ وَأَقْرَبُ (حكمة ١٨٠)

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَلَجُوا عَلَيْهِمْ فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ (كتاب ٢٨)

أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَالاشَدُّونَ بِالرَّسُولِ نَوْطاً فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفوسُ آخَرِينَ (خطبة ١٦٢)

فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ (كتاب ٢٨)

وَقَال قَائِلٌ: إِنَّكَ يابْنَ أَبِي طَالِب عَلَى هذَا الأَمْرِ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ

(خطبـة ١٧٢)

أَمَـا وَاللـه لَقَـدْ تَقَمَّصَهـا فُـلانٌ، وَإِنَّـهُ لَيَعْلَـمُ أَنَّ مَحَلِّـيَ مِنهَـا مَحَـلُّ القُطْـبِ مِـنَ الرَّحَـا، يَنْحَـدِرُ عَنِّـي السَّـيْلُ، وَلا يَرْقَـى إِلَـيَّ الطَّيْـرُ (خطبـة ٣)

أَيُّهَـا النَّـاسُ، إِنَّ أَحَـقَّ النَّاسِ بِهـذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْـهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْـرِ اللـهِ فِيـهِ، فَـإِنْ شَـغَبَ شَـاغِبٌ اسْـتُعْتِبَ فَـإِنْ أَبَـى قُوتِـلَ (خطبة ١٧٣)

وَقُلْـتَ: إِنِّـي كُنْـتُ أُقَـادُ كَمَـا يُقَـادُ الْجَمَـلُ الْـمَخْشُوشُ حَتَّـى أُبَايِـعَ، وَلَعَمْـرُ اللـهِ لَقَـدْ أَرَدْتَ أَنْ تَـذُمَّ فَمَدَحْـتَ، وَأَنْ تَفْضَـحَ فَافْتَضَحْـتَ! وَمَـا عَلَـى الْمُسْـلِمِ مِـنْ غَضَاضَـةٍ فِـي أَنْ يَكُـونَ مَظْلُومـاً مَـا لَـمْ يَكُـنْ شَـاكّاً فِـي دِينِـهِ (كتـاب ٢٨)

فَـإِنْ أَقُـلْ يَقُولُـوا حَـرَصَ عَلَـى الْـمُلْكِ، وَإِنْ أَسْـكُتْ يَقُولُـوا جَـزِعَ مِـنَ الْمَـوْتِ (خطبـة ٥)

نقد الخلفاء

فَيَـا عَجَبـاً!! بَيْنَـا هُـوَ يَسْـتَقِيلُها فـي حَيَاتِـهِ إِذْ عَقَدَهَـا لاخَـرَ بَعْـدَ وَفَاتِـهِ لَشَـدَّ مَـا تَشَـطَّرَا ضَرْعَيْهَـا (خطبـة ٣)

لَـمْ تَكُـنْ بَيْعَتُكُـمْ إِيَّـايَ فَلْتَـةً وَلَيْسَ أَمْـرِي وَأَمْرُكُـمْ وَاحِداً (خطبة ٦)

للـه بـلاء فُـلاَن، فَلَقَـدْ قَـوَّمَ الأَوَدَ، وَدَاوَى الْعَمَـدَ وَأَقَـامَ السُّـنَّةَ،

وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ، ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ، أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا، أَدَّى إِلَى اللهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ، رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُق مَتَشَعِّبَة لاَ يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلاَ يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي (خطبة ٢٢٧)

فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَة خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا وَالاْعْتِذَارُ مِنْهَا (خطبة ٣)

حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَة زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَاللهِ وَلِلشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الاْوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هذِهِ النَّظَائِرِ (خطبة ٣)

فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه وَمَالَ الاْخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَن وَهَن إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِه (خطبة ٣)

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ، يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ، لَقَدْ قَال بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً (خطبة ٨٣)

قالوا: وقام إِليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فلمّا فرغ من قراءته قَال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو اطَّرَدت مَقالتكَ من حيث أَفضيتَ فَقَال عليه السلام: هَيْهَاتَ يَابْنَ عَبَّاس! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ. قَال ابن

عبـاس: فواللـه مـا أَسـفت علـى كلام قـطّ كأَسـفي علـى ذلـك الـكلام أَلاَّ يكـون أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام بلـغ منـه حيـث أراد (خطبـة ٣)

إِلَـى أَنْ قَـامَ ثَالِـثُ القَـوْمِ، نَافِجَـاً حِضْنَيْـهِ بَيْـنَ نَثِيلـهِ وَمُعْتَلَفِـهِ وَقَـامَ مَعَـهُ بَنُـو أَبِيـهِ يَخْضَمُـونَ مَـالَ اللـهِ خَضْـمَ الأْبِـل نِبْتَـةَ الرَّبِيـعِ (خطبـة ٣)

اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الأْثَرَةَ (خطبة ٣٠)

مبررات الإمام عليه السّلام

قَـال عبداللـه بـن عبـاس رحمـه اللـه: دخلـت علـى أَميـر المؤمنيـن صلـوات اللـه عليـه بـذي قـار وهـو يخصِـف نعلـه فقَـال لـي: مـا قيمـة هـذا النعـل؟ فقلـت: لا قيمـةَ لهـا! قـال: واللـه لَهِـيَ أَحَـبُّ إِلـيَّ مـن إِمرتكـم، إِلاّ أَن أُقيـم حقّـاً، أَو أَدفـع باطـلا (خطبـة ٣٣)

لَقَـدْ عَلِمْتُـمْ أَنِّـي أَحَـقُّ بِهَـا مِـنْ غَيْـرِي، وَوَاللـهِ لَأُسْـلِمَنَّ مَـا سَـلِمَتْ أُمُـورُ الْمُسْـلِمِينَ، وَلَـمْ يَكُنْ فِيهِـا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَـيَّ خَاصَّـةً، الْتِمَاسـاً لِأَجْـرِ ذلِـكَ وَفَضْلِـهِ، وَزُهْـداً فِيَمـا تَنافَسْـتُمُوهُ (خطبـة ٧٣)

وَاللـهِ مَـا كَانَـتْ لِـي فِـي الْخِلاَفَـةِ رَغْبَـةٌ، وَلاَ فِـي الْوِلاَيَـةِ إِرْبَـةٌ (خطبة ٢٠٥)

وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَد جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَة عَمْيَاءَ (خطبة ٣)

أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاح، أوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ (خطبة ٥)

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ المَوْتِ (خطبة ٢٦)

فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلاَن يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلاَمِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُم (كتاب ٦٢)

أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ (خطبة ٥)

وَمُجْتَنِي الَّثمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كالزَّارعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ (خطبة ٥)

خلافة عثمان

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الأُمَّةِ وَال أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالاً فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا (خطبة ٤٣)

وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الأَثَرَةَ وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَعَ (خطبة ٣٠)

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ

وَقَـامَ مَعَـهُ بَنُـو أَبِيـهِ يَخْضَمُـونَ مَـالَ اللـهِ خَضْـمَ الأْبِـل نِبْتَـةَ الرَّبِيـعِ (خطبـة ٣)

إِنَّ النَّـاسَ وَرَائـي، وَقَـدِ اسْتَسْـفَرُونـي بَيْنَـكَ وَبَيْنَهُـمْ، وَوَاللـهِ مَـا أَدْرِي مَـا أَقُـولُ لَـكَ! مَـا أَعْـرِفُ شَـيْئاً تَجْهَلُـهُ، وَلاَ أَدُلُّـكَ عَلَـى أَمْـر لاَ تَعْرِفُـهُ، إِنَّـكَ لَتَعْلَـمُ مَـا نَعْلَـمُ، مَـا سَـبَقْنَاكَ إِلَـى شَـيْء فَنُخْبِـرَكَ عَنْـهُ، وَلاَ خَلَوْنَـا بِشَـيْء فَنُبَلِّغَكَـهُ، وَقَـدْ رَأَيْـتَ كَمَـا رَأَيْنَـا، وَسَـمِعْتَ كَمَـا سَـمِعْنَا، وَصَحِبْـتَ رَسُـولَ اللـه صلـى اللـه عليـه وآلـه كَمَـا صَحِبْنَـا. وَمَـا ابْـنُ أَبِـي قُحَافَـةَ وَلاَ ابْـنُ الْخَطَّـابِ بِأَوْلَـى بِعَمَـلِ الْحَـقِّ مِنْـكَ، وَأَنْـتَ أَقْـرَبُ إِلَـى رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه وَشِـيجَةَ رَحِـم مِنْهُمَـا، وَقَـدْ نِلْـتَ مَـنْ صَهْـرِهِ مَـا لَـمْ يَنَـالاَ (خطبـة ١٦٤)

وَمَـا ابْـنُ أَبِـي قُحَافَـةَ وَلاَ ابْـنُ الْخَطَّـابِ بِأَوْلَـى بِعَمَـلِ الْحَـقِّ مِنْـكَ، وَأَنْـتَ أَقْـرَبُ إِلَـى رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه وَشِـيجَةَ رَحِـم مِنْهُمَـا، وَقَـدْ نِلْـتَ مَـنْ صَهْـرِهِ مَـا لَـمْ يَنَـالاَ.فَاللـهَ اللـهَ فِـي نَفْسِـكَ! فَإِنَّـكَ وَاللـهِ مَـا تُبَصَّـرُ مِـنْ عَمـىً، وَلاَ تُعَلَّـمُ مِـنْ جَهْـل، وَإِنَّ الْطُّـرُقَ لَوَاضِحَـةٌ، وَإِنَّ أَعْـلاَمَ الدِّيـنِ لَقَائِمَـةٌ (خطبـة ١٦٤)

فَاعْلَـمْ أَنَّ أَفْضَـلَ عِبَـادِ اللـهِ عِنْدَ اللـهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُـدِيَ وَهَدَي، فَأَقَـامَ سُـنَّةً مَعْلُومَـةً، وَأَمَـاتَ بِدْعَـةً مَجْهُولَـةً، وَإِنَّ السُّـنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَـا أَعْـلاَمٌ، وَإِنَّ الْبِـدَعَ لَظَاهِـرَةٌ، لَهَـا أَعْـلاَمٌ، وَإِنَّ شَـرَّ النَّـاسِ

عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً.وَإِني سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا».)

وَإِني أَنْشُدُكَ اللهَ أنْ تَكُونَ إِمَامَ هذِهِ الأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هذِهِ الأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلى يَوْمِ الْقُيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً. فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلَ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ.)

فَقَال لَهُ عُثْمَانُ: كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِن مَظَالِمِهِمْ، فَقَال عليه السلام: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ (خطبة ١٦٤)

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَه وَأُقِلُّ عِتَابَهُ (كتاب ١)

فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُوم لاَ ذَنْبَ لَهُ (كتاب ٢٨)

يَابْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلاَّ أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً

بِالْغَرْبِ أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ، بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الاْنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً (خطبة ٢٤٠)

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الاْثَرَةَ وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَعَ وَللهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ في المُسْتَأْثِرِ وَالجَازِعِ (خطبة ٣٠)

خلافة الإمام عليه السّلام

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا (خطبة ١٣٧)

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ، وَلاَ فِي الْوِلاَيَةِ إِرْبَةٌ وَلكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا (خطبة ٢٠٥)

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي، فإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الاْفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ.)

وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ

وَزِيـراً، خَيْـرٌ لَكُـمْ مِنِّـي أَمِيـراً (خطبـة ٩١)

اضْـرِبْ بِطَرْفِـكَ حَيْـثُ شِـئْتَ مِـنَ النَّـاسِ، فَهَـلْ تُبْصِـرُ إِلاَّ فَقِيـراً يُكَابِـدُ فَقْـراً، أَوْ غَنِيّـاً بَـدَّلَ نِعْمَـةَ اللـهِ كُفْـراً، أَوْ بَخِيـلاً اتَّخَـذَ الْبُخْـلَ بِحَـقِّ اللـهِ وَفْـراً، أَوْ مُتَمَـرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِـهِ عَـنْ سَـمْعِ الْمَوَاعِـظِ وَقْـراً! (خطبـة ١٢٩)

فَلَمَّـا نَهَضْـتُ بِالأَمْـرِ نَكَثَـتْ طَائِفَـةٌ وَمَرَقَـتْ أُخْـرَى وَفَسَـقَ وقسـط آخَـرُونَ (خطبـة ٣)

أَلاَ وَقَـدْ أَمَرَنِـيَ اللـهُ بِقِتَـالِ أَهْـلِ الْبَغْـيِ وَالْنَّكْـثِ وَالْفَسَـادِ فِـي الأَرْضِ، فَأَمَّـا النَّاكِثُـونَ فَقَـدْ قَاتَلْـتُ، وَأَمَّـا الْقَاسِـطُونَ فَقَـدْ جَاهَـدْتُ، وَأَمَّـا الْمَارِقَـةُ فَقَـدْ دَوَّخْـتُ (خطبـة ١٩٢)

الناكثون

وَكَانَ مِـنْ عَائِشَـةَ فِيـهِ فَلْتَـةُ غَضَـب، فَأُتِيـحَ لَـهُ قَـوْمٌ فَقَتَلُـوهُ (خطبـة ١)

وَأَمَّـا فُلاَنَـةُ، فَأَدْرَكَهَـا رَأْيُ الْنِّسَـاءِ، وَضِغْـنٌ غَـلاَ فِـي صَدْرِهَا كَمِرْجَـلِ الْقَيْـنِ وَلَـوْ دُعِيَـتْ لِتَنَـالَ مِـنْ غَيْـرِي مَـا أَتَـتْ إِلَـيَّ، لَـمْ تَفْعَـلْ، وَلَهَـا بَعْـدُ حُرْمَتُهَـا الأُولَـى، وَالْحِسَـابُ عَلَـى اللـهِ (خطبـة ١٥٦)

وَاللـهِ مَـا اسْـتَعْجَلَ مُتَجَـرِّداً لِلطَّلَـبِ بِـدَمِ عُثْمَـانَ إِلاَّ خَوْفـاً مِـنْ أَنْ يُطَالَـبَ بِدَمِـهِ، لأَنَّـهُ مَظِنَّتُـهُ، وَلَـمْ يَكُـنْ فِـي الْقَـومِ أَحْـرَصُ

عَلَيْـهِ مِنْـهُ، فَـأَرَادَ أَنْ يُغَالِـطَ بِمَـا أَجْلَـبَ فِيـهِ لِيَلْتَبِـسَ الأَمْـرُ وَيَقَـعَ الشَّـكُّ (خطبـة ١٧٤)

إِنَّ هـؤُلاَءِ قَـدْ تَمَـالأُوا عَلَـى سَـخْطَةِ إِمَارَتِـى، وَسَـأَصْبِرُ مَـا لَـمْ أَخَـفْ عَلَـى جَمَاعَتِكُـمْ، فَإِنَّهُـمْ إِنْ تَمَّمُـوا عَلَـى فَيَالَـةِ هـذَا الرَّأْي انْقَطَـعَ نِظَـامُ الْمُسْـلِمِينَ، وَإِنَّمَـا طَلَبُـوا هـذِهِ الدُّنْيَـا حَسَـداً لِمَـنْ أَفَاءَهَـا اللـهُ عَلَيْـهِ فَـأَرَادُوا رَدَّ الأُمُـورِ عَلَـى أَدْبَارِهَـا (خطبـة ١٦٩)

كُلُّ وَاحِـد مِنْهُمَـا يَرْجُـو الأَمْرَ لَـهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْـهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّـانِ إِلَـى اللـهِ بِحَبْـل، وَلاَ يَمُـدَّانِ إِلَيْـهِ بِسَـبَب. كُلُّ واحِـد مِنْهُمَـا حَامِـلُ ضَـبٍّ لِصَاحِبِـهِ، وَعَمَّـا قَلِيـل يُكْشَـفُ قِنَاعُـهُ بِـهِ! وَاللـهِ لَئِـنْ أَصَابُـوا الَّـذِي يُرِيـدُونَ لَيَنْتَزِعَـنَّ هـذَا نَفْـسَ هـذَا، وَلَيَأْتِيَـنَّ هـذَا عَلَـى هـذَا (خطبـة ١٤٨)

نبايعك على أَنّـا شـركاؤُكَ فـي هـذا الأَمـر. فقـال: لاَ، وَلكِنَّكُمَا شَـرِيكَانِ فِـي الْقُـوَّةَ وَالإِسْـتَعَانَةِ، وَعَوْنَـانِ عَلَـى الْعَجْـزِ وَالأَوَدِ (خطبة ١٩٢)

وَاللـهِ لَـوْ وَجَدْتُـهُ قَـدْ تُـزُوِّجَ بِـهِ النِّسَـاءُ، وَمُلِـكَ بِـهِ الإِمَـاءُ، لَرَدَدْتُـهُ، فَـإِنَّ فِـي العَـدْلِ سَـعَةً، وَمَـنْ ضَـاقَ عَلَيْـهِ العَـدْلُ، فَالجَـوْرُ عَلَيْـهِ أَضيَـقُ (خطبـة ١٥)

لَقَـدْ نَقَمْتُمـا يَسِـيراً، وَأَرْجَأْتُمَـا كَثِيـراً، أَلاَ تُخْبِرَانِـي، أَيُّ شَـيْء لَكُمَـا فِيـهِ حَـقٌّ دَفَعْتُكُمَـا عَنْـهُ؟ وأَيُّ قَسْـم اسْـتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَـا بِـهِ؟

أَمْ أَيُّ حَـقّ رَفَعَـهُ إِلَـيَّ أَحَـدٌ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ ضَعُفْـتُ عَنْـهُ، أَمْ جَهِلْتُـهُ، أَمْ أَخْطَـأْتُ بَابَـهُ (خطبـة ٢٠٥)

يَزْعُـمُ أَنَّـهُ قَـدْ بَايَـعَ بِيَـدِهِ، وَلَـمْ يُبَايِـعْ بِقَلْبِـهِ، فَقَـدْ أَقَـرَّ بِالبَيْعَـةِ، وَادَّعَـى الوَلِيجَـةَ فَلْيَـأْتِ عَلَيْهَـا بِأَمْـر يُعْـرَفُ، وَإِلاَّ فَلْيَدخُـلْ فِيمَا خَـرَجَ مِنْـهُ (خطبـة ٨)

فَـإِنْ كُنْتُمـا بَايَعْتُمانِـي طَائِعَيْـنِ، فارْجِعَـا وَتُوبَـا إِلَـى اللـهِ مِـنْ قَرِيـب، وَإِنْ كُنْتُمـا بَايَعْتُمانِـي كَارِهَيْـنِ، فَقَـدْ جَعَلْتُمـا لِـي عَلَيْكُمَا السَّـبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَـا الطَّاعَـةَ، وَإِسْـرَارِكُمَا الْمَعْصِيَـةَ (كتـاب ٥٤)

وَاللـهِ مَـا اسْـتَعْجَلَ مُتَجَـرِّداً لِلطَّلَـبِ بِـدَمِ عُثْمـانَ إِلاَّ خَوْفـاً مِـنْ أَنْ يُطَالَـبَ بِدَمِـهِ، لاَنَّـهُ مَظِنَّتُـهُ، وَلَـمْ يَكُـنْ فِـي الْقَـومِ أَحْـرَصُ عَلَيْـهِ مِنْـهُ، فَـأَرَادَ أَنْ يُغَالِـطَ بِمَـا أَجْلَـبَ فِيـهِ لِيَلْتَبِـسَ الأَمْـرُ وَيَقَـعَ الشَّـكُّ.)

وَوَاللـهِ مَـا صَنَـعَ فِـي أَمْـرِ عُثْمـانَ وَاحِـدَةً مِـنْ ثَـلاَث: لَئِـنْ كَانَ ابْـنُ عَفَّـانَ ظَالِمـاً كَمَـا كَانَ يَزْعُـمُ لَقَـدْ كَانَ يَنْبَغِـي لَـهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيـهِ وَأَنْ يُنَابِـذَ نَاصِرِيـهِ، وَلَئِـنْ كَانَ مَظْلُومـاً لَقَـدْ كَانَ يَنْبَغِـي لَـهُ أَنْ يَكُـونَ مِـنَ المُنَهْنِهِيـنَ عَنْـهُ وَالْمُعَذِّرِيـنَ فِيـهِ وَلَئِـنْ كَانَ فِـي شَـكّ مِـنَ الْخَصْلَتَيْـنِ، لَقَـدْ كَانَ يَنْبَغِي لَـهُ أَنْ يَعْتَزِلَـهُ وَيَرْكُدَ جَانِبـاً وَيَـدَعَ النَّـاسَ مَعَـهُ، فَمَـا فَعَـلَ وَاحِـدَةً مِـنَ الثَّـلاَثِ، وَجَاءَ بِأَمْـر لَـمْ يُعْـرَفْ بَابُـهُ، وَلَـمْ تَسْـلَمْ مَعَاذِيـرُهُ (خطبـة ١٧٤)

وَاللـهِ مَـا أَنْكَـرُوا عَلَـيَّ مُنْكَـراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِـي وَبَيْنَهُـمْ نَصِفاً، وَإِنَّهُـمْ لَيَطْلُبُـونَ حَقّـاً هُـمْ تَرَكُـوهُ، وَدَمـاً هُـمْ سَـفَكُوهُ (خطبـة ٢٢)

إِنَّ النَّـاسَ طَعَنُـوا عَلَيْـهِ، فَكُنْـتُ رَجُـلاً مِـنَ الْمُهَاجِرِيـنَ أُكْثِـرُ اسْـتِعْتَابَه وَأُقِـلُّ عِتَابَـهُ، وَكَانَ طَلْحَـةُ وَالزُّبَيْـرُ أَهْـوَنُ سَـيْرِهِمَا فِيـهِ الْوَجِيـفُ وَأَرْفَـقُ حِدَائِهِمَـا الْعَنِيـفُ، وَكَانَ مِـنْ عَائِشَـةَ فِيـهِ فَلْتَـةُ غَضَـب، فَأُتِيـحَ لَـهُ قَـوْمٌ فَقَتَلُـوهُ (كتـاب ١)

وَإِنَّهُـمْ لَيَطْلُبُـونَ حَقّـاً هُـمْ تَرَكُـوهُ، وَدَمـاً هُـمْ سَـفَكُوهُ، فَلَئِـنْ كُنْـتُ شَـرِيكَهُمْ فِيـهِ فَـإِنَّ لَهُـمْ لَنَصِيبَهُـمْ مِنْـهُ، وَلَئِـنْ كَانُـوا وَلُـوهُ دُونـي، فَمَـا التَّبِعَـةُ إِلاَّ عِنْدَهُـمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِـهِمْ (خطبـة ٢٢)

أَلاَ وإِنَّ الشَّـيْطَانَ قَـدْ ذَمَّـرَ حِزْبَـهُ وَاسْـتَجْلَبَ جَلَبَهُ لِيَعُـودَ الجَوْرُ إِلَـى أَوْطَانِـهِ، وَيَرْجِـعَ البَاطِـلُ إِلَـى نِصَابِـهِ، .... يَرْتَضِعُـونَ أُمّـاً قَـدْ فَطَمَـتْ وَيُحْيُـونَ بِدْعَـةً قَـدْ أُمِيتَـتْ (خطبـة ٢٢)

وَقَـدْ زَعَمْتُمـا أَنِّـي قَتَلْـتُ عُثْمـانَ، فَبَيْنِـي وَبَيْنَكُمَـا مَـنْ تَخَلَّـفَ عَنِّـي وَعَنْكُمَـا مِـنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ، ثُـمَّ يُلْـزَمُ كُلُّ امْـرِىء بِقَـدْرِ مَـا احْتَمَـلَ (كتـاب ٥٤)

وَاللـهِ لاَ أَكُـونُ كالضَّبُـعِ تَنَـامُ عَلـى طُـولِ اللَّـدْمِ حَتَّـى يَصِـلَ إِلَيْهَـا طَالِبُهَـا، وَيَخْتِلَهَـا رَاصِدُهـا وَلكِنِّـي أَضْـرِبُ بِالمُقْبِـلِ إِلَـى الحَـقِّ المُدْبِـرَ عَنْـهُ، وَبِالسَّـامِعِ المُطِيـعِ العَاصِـيَ المُرِيـبَ أَبَداً،

حَتَّـى يَأْتِـيَ عَلَـيَّ يَوْمِـي. فَوَاللـهِ مَـا زِلـتُ مَدْفُوعـاً عَـنْ حَقِّـي، مُسْـتَأْثَراً عَلَـيَّ، مُنْـذُ قَبَـضَ اللـهُ تعالـى نَبِيَّـهُ صلـى اللـه عليـه وآلـه حَتَّـى يَـوْمِ النَّـاسِ هـذَا (خطبـة ٦)

فَارْجِعَـا أَيُّهَـا الشَّـيْخَانِ عَـنْ رَأْيِكُمَـا، فَـإِنَّ الاْنَ أَعْظَـمَ أَمْرِكُمَـا الْعَـارُ، مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَجْتَمِـعَ الْعَـارُ وَالنَّـارُ (كتـاب ٥٤)

يَقُـولُ لَـكَ ابْـنُ خَالِـكَ: عَرَفْتَنـي بَالحِجَـازِ وَأَنْكَرْتَنِـي بِالعِـرَاقِ، فَمَـا عَـدَا مِمَّـا بَـدَا (خطبـة ٣١)

اللَّهُـمَّ إِنَّهُمَـا قَطَعَانـي وَظَلَمَانـي، وَنَكَثَـا بَيْعَتِـي، وَأَلَّبَـا النَّـاسَ عَلَـيَّ، فَاحْلُـلْ مَـا عَقَـدَا، وَلاَ تُحْكِـمْ لَهُمَـا مَـا أَبْرَمَـا، وَأَرِهِمَـا الْمَسَـاءَةَ فِيمَـا أَمَّـلاَ وَعَمِـلا (خطبـة ١٣٧)

فَخَرَجُـوا يَجُـرُّونَ حُرْمَـةَ رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه كَمَـا تُجَـرُّ الأَمَـةُ عِنْـدَ شِـرَائِهَا، مُتَوَجِّهِـينَ بِهَـا إِلَـى الْبَصْـرَةِ، فَحَبَسَـا نِسَـاءَهُمَا فِـي بُيُوتِهِمَـا، وَأَبْـرَزَا حَبِيـس رَسُـولِ اللـهِ صلـى اللـه عليـه وآلـه لَهُمَـا وَلِغَيْرِهِمَـا، فِـي جَيْـش مَـا مِنْهُـمْ رَجُـلٌ إِلاَّ وَقَـدْ أَعْطَانِـي الطَّاعَـةَ، وَسَـمَحَ لِـي بِالْبَيْعَـةِ، طَائِعـاً غَيْـرَ مُكْـرَه (خطبـة ١٧٢)

فَقَدِمُـوا عَلَـى عَامِلِـي بِهَا وَخُـزَّانِ بَيْتِ مَـالِ الْمُسْـلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِـنْ أَهْلِهَـا، فَقَتَلُـوا طَائِفَةً صَبْـراً وَطَائِفَةً غَـدْراً (خطبة ١٧٢)

فَقَدِمُـوا عَلَـى عُمَّالِـي، وَخُـزَّانِ بَيْـتِ مَـالِ الْمُسْـلِمِينَ الَّـذِي فـي يَـدَيَّ، وَعَلَـى أَهْـلِ مِصْـر، كُلُّهُـمْ فِـي طَاعَتِـي وَعَلَـى بَيْعَتِـي،

فَشَـتَّتُوا كَلِمَتَهُـمْ، وَأَفْسَـدُوا عَلَـيَّ جَمَاعَتَهُـمْ، وَوَثَبُـوا عَلَـى شِـيعَتِي، فَقَتَلُـوا طَائِفَـةً مِنْهُـمْ غَـدْراً، وَطَائِفَـةٌ عَضُّـوا عَلَـى أَسْـيَافِهِمْ فَضَارَبُـوا بِهَـا حَتَّـى لَقُـوا اللـهَ صَادِقِيـن (خطبة ٢١٧)

فَوَاللـهِ لَـوْ لَـمْ يُصِيبُـوا مِنَ الْمُسْـلِمِينَ إِلاَّ رَجُـلاً وَاحِـداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِـهِ، بِـلاَ جُـرْم جَـرَّهُ، لَحَـلَّ لـي قَتْـلُ ذلِـكَ الْجَيْـشِ كُلِّـهِ، إِذْ حَضَـرُوهُ فَلَـمْ يُنْكِـرُوا، وَلَـمْ يَدْفَعُـوا عَنْـهُ بِلِسَـان وَلاَ يَـد. دَعْ مَـا أَنَّهُـمْ قَـدْ قَتَلُـوا مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ مِثْـلَ الْعِـدَّةِ الَّتِـي دَخَلُـوا بِهَـا عَلَيْهِـمْ (خطبـة ١٧٢)

وَلَقَـدِ اسْـتَثْبَتُّهُمَا قَبْـلَ الْقِتَـالِ، وَاسْـتَأْنَيْتُ بِهِمَـا أَمَـامَ الْوِقَـاعِ فَغَمَطَـا النِّعْمَـةَ وَرَدَّا الْعَافِيَـةَ (خطبـة ١٣٧)

مَالِـي وَلِقُرَيْـش! وَاللـهِ لَقَـدْ قَاتَلْتُهُـمْ كَافِرِيـنَ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُـمْ مَفْتُونِيـنَ، وَإِنِّـي لَصَاحِبُهُـمْ بِالأَمْـسِ، كَمَـا أَنَـا صَاحِبُهُـمُ الْيَـوْمَ (خطبـة ٣٣)

وَاعْلَمُـوا أَنَّ دَارَ الْهِجْـرَةِ قَـدْ قَلَعَـتْ بِأَهْلِهَـا وَقَلَعُوا بِهَا وَجَاشَـتْ جَيْـشَ الْمِرْجَـلِ وَقَامَـتِ الْفِتْنَـةُ عَلَـى الْقُطْـبِ، فَأَسْـرِعُوا إِلَـى أَمِيرِكُـمْ، وَبَـادِرُوا جِهَـادَ عَدُوِّكُـمْ هج البلاغـة كتـاب ١)

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْس:)

أَمَّـا بَعْـدُ، فَقَـدْ بَلَغَنِـي عَنْـكَ قَـوْلٌ هُـوَ لَـكَ وَعَلَيْـكَ، فـإِذَا قَـدِمَ عَلَيْـكَ رَسُـولي فارْفَـعْ ذَيْلَـكَ، واشْـدُدْ مِئْـزَرَكَ واخْـرُجْ مِـنْ جُحْـرِكَ وَانْـدُبْ مَـنْ مَعَـكَ، فَـإِنْ حَقَّقْـتَ فَانْفُـذْ وَإِنْ تَفَشَّـلْتَ

فَابْعُدْ، وَايْمُ اللـهِ لَتُؤْتَيَنَّ حَيْثُ أَنْتَ، وَلاَ تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو، وَلكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَيُذَلُّ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا.)

فَاعْقِلْ عَقْلَكَ وَامْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْب وَلاَ فِي نَجَاة، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِم، حَتَّى لاَ يُقَالَ: أَيْنَ فُلاَنٌ؟ وَاللـهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقّ، وَمَا أُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلاَم هج البلاغة كتاب ٦٣)

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هذَا: إِمَّا ظَالِماً، وَإِمَّا مَظْلُوماً، وَإِمَّا بَاغِياً، وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ. وَأنا أُذَكِّرُ اللـهِ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسْيئاً اسْتَعْتَبَنِي (كتاب ٥٧)

وَجَزَاكُمُ اللـهُ مِنْ أَهْلِ مِصْر عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ (كتاب ٢)

فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ (كتاب ٢٩)

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّد بِهذَا الْمَكَانِ غَرِيباً، أَمَا وَاللـهِ لَقَدْ

كَنْـتُ أَكْـرَهُ أَنْ تَكُـونَ قُرَيْـشٌ قَتْلَـى تَحْـتَ بُطُـونِ الْكَوَاكِـبِ، أَدْرَكْـتُ وَتْـرِي مِـنْ بَنِـي عَبْـدِ مَنَـاف، وَأَفْلَتَتْنِـي أَعْيَـانُ بَنِـي جُمَـحَ، لَقَـدْ أَتْلَعُـوا أَعْنَاقَهُـمْ إِلَـى أَمْـر لَـمْ يَكُونُـوا أَهْلَـهُ فَوُقِصُـوا دُونَـهُ (خطبـة ٢١٨)

القاسطون

أَمَّـا بَعْـدُ، فَقَـدْ عَلِمْـتَ إِعْـذَارِي فِيكُـمْ، وَإِعْرَاضِـي عَنْكُـمْ، حَتَّى كَانَ مَـا لاَ بُـدَّ مِنْـهُ وَلاَ دَفْـعَ لَـهُ، وَالْحَدِيـثُ طَوِيـلٌ، وَالْـكَلاَمُ كَثِـرٌ، وَقَـدْ أَدْبَـرَ مَـا أَدْبَـرَ، وَأَقْبَـلَ مَـا أَقْبَـلَ، فَبَايِـعْ مَـنْ قِبَلَـكَ وَأَقْبِـلْ إِلَـيَّ فِـي وَفْـد مِـنْ أَصْحَابِـكَ، وَالسَّـلاَمُ (خطبـة ٧٥)

وَاللـهِ لَـوْ وَجَدْتُـهُ قَـدْ تُـزُوِّجَ بِـهِ النِّسَـاءُ، وَمُلِـكَ بِـهِ الإِمَـاءُ، لَرَدَدْتُـهُ، فَـإِنَّ فِـي العَـدْلِ سَـعَةً، وَمَـنْ ضَـاقَ عَلَيْـهِ العَـدْلُ، فَالجَـوْرُ عَلَيْـهِ أَضيَـقُ (خطبـة ١٥)

وَاللـهِ مَـا مُعَاوِيَـةُ بِأَدْهَـى مِنِّـي، وَلكِنَّـهُ يَغْـدِرُ وَيَفْجُـرُ، وَلَـوْلاَ كَرَاهِيَـةُ الْغَـدْرِ لَكُنْـتُ مِـنْ أَدْهَـى النَّـاسِ (خطبـة ٢٠٠)

وَمَـا أَنْـتَ وَالْفَاضِـلَ وَالْمَفْضُـولَ، وَالسَّـائِسَ وَالْمَسُـوسَ! وَمَـا لِلطُّلَقَـاءِ وَأَبْنَـاءِ الطُّلَقَـاءِ، وَالـتَّمْيِيزَ بَيْـنَ الْمُهَاجِرِيـنَ الأَوَّلِيـنَ، وَتَرْتِيـبَ دَرَجَاتِهِـمْ، وَتَعْرِيـفَ طَبَقَاتِهِـمْ (كتـاب ٢٨)

أَمَّـا بَعْـدُ، فَإِنَّـا كُنَّـا نَحْـنُ وَأَنْتُـمْ عَلَـى مَـا ذَكَـرْتَ مِـنَ الأُلْفَـةِ وَالْجَمَاعَـةِ، فَفَـرَّقَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُـمْ أَمْـسِ أَنَّا آمَنَّـا وَكَفَرْتُـمْ، وَالْيَوْمَ أَنَّـا اسْـتَقَمْنَا وَفُتِنْتُـمْ، وَمَـا أَسْـلَمَ مُسْـلِمُكُمْ إِلاَّ كَرْهـاً (كتـاب ٦٤)

فَقَـدْ سَـلَكْتَ مَـدَارِجَ أَسْـلاَفِكَ بِادِّعَائِـكَ الأَباطِيـلَ، وَإِقْحَامِـكَ غُـرُورَ الْمَيْـنِ وَالأَكَاذِيـبِ، وَبِانْتِحَالِـكَ مَـا قَـدْ عَـلاَ عَنْـكَ وَابْتِـزَازِكَ لِمَـا قَـدِ اخْتُـزِنَ دُونَـكَ (كتـاب ٦٥)

إِنَّـهُ بَايَعَنِـي الْقَـوْمُ الَّذِيـنَ بَايَعُـوا أَبَـا بَكْـر وَعُمَـرَ وَعُثْمَـانَ عَلَى مَـا بَايَعُوهُـمْ عَلَيْـهِ، فَلَـمْ يَكُـنْ لِلشَّـاهِدِ أَنْ يَخْتَـارَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَـرُدَّ، وَإِنَّمَـا الشُّـورَى لِلْمُهَاجِرِيـنَ وَالأَنْصَـارِ، فَـإِنِ اجْتَمَعُـوا عَلَـى رَجُـل وَسَـمَّوْهُ إِمَامـاً كَانَ ذلِـكَ للـه رِضـىً، فَـإِنْ خَـرَجَ عَـنْ أَمْرِهِـمْ خَـارِجٌ بِطَعْـن أَوْبِدْعَـة رَدُّوهُ إِلَـى مَاخَـرَجَ منـه، فَـإِنْ أَبَـى قَاتَلُـوهُ عَلَـى اتِّبَاعِـهِ غَيْـرَ سَـبِيلِ الْمُؤْمِنِيـنَ، وَوَلاَّهُ اللـهُ مَـا تَوَلَّـى (كتـاب ٦)

إِنَّ اسْـتَعْدَادِي لِحَـرْبِ أَهْـلِ الشَّـامِ وَجِرِيـرٌ عِنْدَهُـمْ، إِغْـلاَقٌ لِلشَّـامِ، وَصَـرْفٌ لِاهْلِـهِ عَـنْ خَيْـر إِنْ أَرادُوهُ، وَلكِـنْ قَـدْ وَقَّتُّ لِجَرِيـر وَقْتـاً لاَ يُقِيـمُ بَعْـدَهُ إِلاَّ مَخْذُوعـاً أَوْ عَاصِيـاً (خطبة ٤٣)

أَمَّـا بَعْـدُ، فَـإِذَا أَتَـاكَ كِتَابِـي فَاحْمِـلْ مُعَاوِيَـةَ عَلَى الْفَصْـلِ وَخُذْهُ بَالأَمْـرِ الْجَـزْمِ، ثُـمَّ خَيِّـرْهُ بَيْـنَ حَـرْب مُجْلِيَـة أَوْ سِـلْم مُخْزِيَـة فَـإِنِ اخْتَـارَ الْحَـرْبَ فَانْبِـذْ إِلَيْـهِ وَإِنِ اخْتَـارَ السِّـلْمَ فَخُـذْ بَيْعَتَـه (كتـاب ٨)

عَجَبـاً لِابْـنِ النَّابِغَـةِ ! يَزْعُـمُ لِأَهْـلِ الشَّـامِ أَنَّ فِـيَّ دُعَابَـةً وَأَنِّـي امْـرُؤٌ تِلْعَابَـةٌ أُعَافِـسُ وَأُمَـارِسُ ! لَقَـدْ قَـال بَاطِـلاً، وَنَطَـقَ آثِماً. أَمَـا وَشَـرُّ الْقَـوْلِ الْكَـذِبُ إِنَّـهُ لَيَقُـولُ فَيَكْـذِبُ، وَيَعِـدُ فَيُخْلِـفُ،

وَيُسْـأَلُ فَيَبْخَـلُ، وَيَسْـأَلُ فَيُلْحِـفُ وَيَخُـونُ الْعَهْـدَ، وَيَقْطَـعُ الإِلَّ، فَـإِذَا كَانَ عِنْـدَ الْحَـرْبِ فَـأَيُّ زَاجِـر وَآمِـر هُـوَ مَـا لَـمْ تَأْخُـذِ السُّـيُوفُ مَآخِذَهَـا، فَـإِذَا كَانَ ذلِـكَ كَانَ أَكْبَـرُ مَكِيدَتِـهِ أَنْ يَمْنَـحَ الْقَـوْمَ سُـبَّتَهُ. ... إِنَّــهُ لَـمْ يُبَايِـعْ مُعَاوِيَــةَ حَتَّــى شَـرَطَ لَــهُ أَنْ يُؤْتِيَــهُ أَتِيَّــةً وَيَرْضَـخَ لَـهُ عَلَـى تَـرْكِ الدِّيـنِ رَضِيخَـة (خطبـة ٨٣)

وَلَـمْ يُبَايِـعْ حَتَّــى شَـرَطَ أَنْ يُؤْتِيَـهِ عَلَـى البَيْعَـةِ ثَمَناً، فَـلاَ ظَفِرَتْ يَـدُ المبايِـعِ، وخَزِيَـتْ أَمَانَةُ المُبْتَـاعِ (خطبة ٢٦)

فَإِنَّـكَ جَعَلْـتَ دِينَـكَ تَبْعـاً لِدُنْيَـا امْـرِىء ظَاهِـر غَيُّـهُ، مَهْتُـوك سِـتْرُهُ، يَشِـينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِـهِ، وَيُسَـفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِـهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَــرَهُ، وَطَلَبْـتَ فَضْلَــهُ، اتِّبَــاعَ الْكَلْــبِ لِلضِّرْغَــامِ يَلُــوذُ إِلَــى مَخَالِبِـهِ، وَيَنْتَظِـرُ مَـا يُلْقَـى إِلَيْـهِ مِـنْ فَضْـلِ فَرِيسَـتِهِ، فَأَذْهَبْـتَ دُنْيَـاكَ وَآخِرَتَـكَ (كتـاب ٣٩)

وَأَمَّــا طَلَبُـكَ إِلَــيَّ الشَّــامَ، فَإِنِّــي لَـمْ أَكُـنْ لِأُعْطِيَـكَ الْيَـوْمَ مَـا مَنَعْتُــكَ أَمْــسِ (كتــاب ١٧)

إِنَّــهُ بَايَعَنِـي الْقَـوْمُ الَّذِيـنَ بَايَعُـوا أَبَـا بَكْـر وَعُمَـرَ وَعُثْمَـانَ عَلَى مَـا بَايَعُوهُـمْ عَلَيْـهِ، فَلَـمْ يَكُـنْ لِلشَّـاهِدِ أَنْ يَخْتَـارَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَـرُدَّ، وَإِنَّمَـا الشُّـورَى لِلْمُهَاجِرِيـنَ وَالأَنْصَـارِ، فَـإِنِ اجْتَمَعُـوا عَلَـى رَجُـل وَسَـمَّوْهُ إِمَامـاً كَانَ ذلِـكَ للــه رِضــىً، فَـإِنْ خَـرَجَ عَـنْ أَمْرِهِـمْ خَـارِجٌ بِطَعْـن أَوْبِدْعَـة رَدُّوهُ إِلَــى مَاخَـرَجَ منــه،

فَـإِنْ أَبَــى قَاتَلُـوهُ عَلَــى اتِّبَاعِـهِ غَيْـرَ سَـبِيلِ الْمُؤْمِنِيـنَ، وَوَلاَّهُ اللــهُ مَـا تَوَلَّــى (كتـاب ٦)

لِأَنَّهَـا بَيْعَـةٌ وَاحِـدَةٌ لاَ يُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ وَلاَ يُسْـتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ، الْخَـارِجُ مِنْهَـا طَاعِنٌ، وَالْمُـرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ (كتاب ٧)

وَلَعَمْـرِي، لَئِـنْ كَانَـتِ الإِمَامَـةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّــى يَحْضُرَهَـا عَامَّـةُ النَّــاسِ، فَمَــا إِلَــى ذلــك سَـبِيلٌ، وَلكِـنْ أَهْلُهَـا يَحْكُمُـونَ عَلَــى مَـنْ غَـابَ عَنْهَـا، ثُـمَّ لَيْـسَ لِلشَّــاهِدِ أَنْ يَرْجِـعَ، وَلاَ لِلغَائِـبِ أَنْ يَخْتَــارَ (خطبـة ١٧٣)

وَأَمَّــا مَــا سَــأَلْتَ مِـنْ دَفْـعِ قَتَلَــةِ عُثْمــانَ إِلَيْـكَ، فَإِنِّــي نَظَـرْتُ فِـي هـذَا الأَمْـرِ، فَلَـمْ أَرَهُ يَسَـعُنِي دَفْعُهُـمْ إِلَيْـكَ وَلاَ إِلَــى غَيْـرِكَ (كتــاب ٩)

وَلَقَـدْ عَلِمْـتَ حَيْـثُ وَقَـعَ دَمُ عُثْمــانَ فَاطْلُبْـهُ مِـنْ هُنَــاكَ إِنْ كُنـتَ طَالِبــاً (كتاب ١٠)

وَقَـدْ أَكْثَـرْتَ فِـي قَتَلَــةِ عُثْمــانَ، فَادْخُـلْ فِيمَـا دَخَـلَ فِيـهِ النَّــاسُ، ثُـمَّ حَاكِـمِ الْقَـوْمَ إِلَــيَّ، أَحْمِلْـكَ وَإِيَّاهُـمْ عَلَــى كِتَــابِ اللــهِ. وَأَمَّــا تِلْــكَ الَّتِــي تُرِيــدُ فَإِنَّهَــا خُدْعَــةُ الصَّبِــيِّ عَــنِ اللَّبَــنِ فِــي أَوَّلِ الْفِصَــالِ (كتــاب ٦٤)

وَلَعَمْـرِي، يَـا مُعَاوِيَـةُ، لَئِـنْ نَظَـرْتَ بِعَقْلِـكَ دُونَ هَـوَاكَ لَتَجِدَنِّـي أَبْـرَأَ النَّــاسِ مِـنْ دَمِ عُثْمــانَ، وَلَتَعْلَمَـنَّ أَنِّــي كُنْـتُ فِــي عُزْلَــة عَنْــهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّــى، فَتَجَـنَّ مَـا بَـدَا لَـكَ (كتـاب ٦)

ثُـمَّ ذَكَـرْتَ مَـا كَانَ مِـنْ أَمْـرِي وَأَمْـرِ عُثْمـانَ، فَلَـكَ أنْ تُجَـابَ عَـنْ هـذِهِ لِرَحِمِـكَ منْـهُ فَأَيُّنَـا كَانَ أَعْـدَى لَـهُ وأَهْـدَى إِلَـى مَقَاتِلِهِ ! أَمْ مَـنْ بَـذَلَ لَـهُ نُصْرَتَـهُ فَاسْـتَقْعَدَهُ وَاسْـتَكَفَّهُ أَمْ مَـنِ اسْـتَنْصَرَهُ فَتَرَاَخـى عَنْـهُ بَـثَّ الْـمَنُونَ إِلَيْـهِ حَتَّـى أَتَـى قَـدَرُهُ عَلَيْـهِ (كتـاب ٢٨)

فَإِنَّـكَ إِنَّمَـا نَصَـرْتَ عُثْمـانَ حَيْـثُ كَانَ النَّصْـرُ لَـكَ، وَخَذَلْتَـهُ حَيْـثُ كَانَ النَّصْـرُ لَـهُ (كتـاب ٣٧)

وَلَقَدْ ضَرَبْـتُ أَنْـفَ هـذَا الأَمْـرِ وَعَيْنَـهُ وَقَلَّبْـتُ ظَهْـرَهُ وَبَطْنَـهُ، فَلَـمْ أَرَ لِـي إِلاَّ الْقِتَـالَ أَوِ الْكُفْـر (خطبـة ٤٣)

قَلَّبْـتُ هـذَا الأَمْـرَ بَطْنَـهُ وَظَهْـرَهُ حَتَّـى مَنَعَنِـي النَّـوْمَ، فَمَـا وَجَدْتُنِـي يَسَـعْني إِلاَّ قِتَالُهُـمْ أَوِ الْجُحُـودُ بِمَـا جَـاءَ بِـهِ مُحَمَّـدٌ صلـى اللـه عليـه وآلـه (خطبـة ٥٣)

فَاتَّـقِ اللـهَ فِيمـا لَدَيْـكَ، وَانْظُـرْ فـي حَقِّـهِ عَلَيْـكَ، وَارْجِـعْ إِلَـى مَعْرِفَـةِ مَـا لاَ تُعْـذَرُ بَجَهَالَتِـهِ (كتـاب ٣٠)

فَاتَّـقِ اللـهَ يَـا مُعَاوِيَـةُ فِـي نَفْسِـكَ، وَجَـاذِبِ الشَّـيْطَانَ قِيَـادَكَ فَـإِنَّ الدُّنْيَـا مُنْقَطِعَـةٌ عَنْـكَ (كتـاب ٣٢)

وَقَـدْ دَعَـوْتَ إِلَـى الْحَـرْبِ، فَـدَعِ النَّـاسَ جَانِبـاً وَاخْـرُجْ إِلَـيَّ، وَأَعْـفِ الْفَرِيقَيـنِ مِـنَ الْقِتَـالِ، لِتَعْلَـمَ أَيُّنَـا الْمَرِينُعَلَـى قَلْبِـهِ، وَالْمُغَطَّـى عَلَـى بَصَـرِهِ! فَأَنَـا أَبُـو حَسَـن قَاتِـلُ جَـدِّكَ وَخَالِـكَ وأَخِيـكَ شَـدْخاً يَـوْمَ بَـدْر، ذلـكَ السَّـيْفُ مَعِـي، وَبِذلِـكَ الْقَلْـبِ

أَلْقَــى عَـدُوِّي (كتـاب ١٠)

لاَ تُقَاتِلُوهُـمْ حَتَّــى يَبْدَأُوكُـمْ، فَإِنَّكُـمْ بِحَمْـدِ اللــهِ عَلَــى حُجَّــة، وَتَرْكُكُـمْ إِيَّاهُـمْ حَتَّـى يَبْدَأُوكُـمْ حُجَّـةٌ أُخْـرَى لَكُـمْ عَلَيْهِـمْ، فَـإِذَا كَانَـتِ الْهَزِيمَــةُ بِــإِذْنِ اللــهِ فَــلاَ تَقْتُلُــوا مُدْبِــراً، وَلاَ تُصيبُــوا مُعْـوِراً وَلاَ تُجْهِـزُوا عَلَــى جَرِيــح (خطبــة ١٤)

فَقُلْنَــا: تَعَالَــوْا نُــدَاوِي مَــا لاَ يُدْرَكُ الْيَـوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ وَتَسْـكِينِ الْعَامَّــةِ، حَتَّــى يَشْـتَدَّ الأَمْـرُ وَيَسْـتَجْمِعَ، فَنَقْـوَى عَلَــى وَضْـعِ الْحَـقِّ مَوَاضِعَـهُ. فَقَالُـوا: بَـلْ نُدَاوِيـهِ بِالْمُكَابَـرَةِ (خطبـة ٥٨)

أَمَّــا بَعْـدُ، فَقَــدْ بَلَغَنِــي أَنَّ رِجَــالاً مِمَّــنْ قِبَلَــكَ يَتَسَــلَّلُونَ إِلَــى مُعَاوِيَــةَ، فَــلاَ تَأْسَـفْ عَلَــى مَــا يَفُوتُــكَ مِــنْ عَدَدِهِــمْ، وَيَذْهَــبُ عَنْــكَ مِــنْ مَدَدِهِــمْ، فَكَفَــى لَهُــمْ غَيّــاً وَلَــكَ مِنْهُــمْ شَــافِياً (كتــاب ٧٠)

وَإِنَّمَــا هُــمْ أَهْــلُ دُنْيَــا مُقْبِلُــونَ عَلَيْهَــا، وَمُهْطِعُــونَ إِلَيْهَــا، قَــدْ عَرَفُــوا الْعَــدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَــمِعُوهُ ووَعَــوْهُ، وَعَلِمُــوا أَنَّ النَّــاسَ عِنْدَنَــا فِــي الْحَــقِّ أُسْــوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَــى الأَثَــرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُــحْقا (كتــاب ٧٠)

وَإِنِّــي وَاللــهِ لاَظُــنُّ هــؤُلاءِ القَــوْمَ سَــيُدَالُونَ مِنْكُــمْ بِاجْتِمَاعِهِــمْ عَلَــى بَاطِلِهِــمْ، وَتَفَرُّقِكُــمْ عَــنْ حَقِّكُــمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُــمْ إِمَامَكُــمْ فــي الحَــقِّ، وَطَاعَتِهِــمْ إِمَامَهُــمْ فــي البَاطِــلِ (خطبــة ٢٥)

فَيَــا عَجَبــاً! عَجَبــاً وَاللــهِ يُمِيــتُ القَلْــبَ وَيَجْلِــبُ الهَمَّ مِــن اجْتِمَاعِ

هـؤُلاَءِ القَـوْمِ عَلَـى بَاطِلِهـمْ، وَتَفَرُّقِكُـمْ عَـنْ حَقِّكُـمْ! فَقُبْحـاً لَكُـمْ وَتَرَحـاً حِيـنَ صِرْتُـمْ غَرَضاً يُرمَـى، يُغَارُ عَلَيْكُـمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْـزَوْنَ وَلاَ تَغْـزُونَ، وَيُعْصَـى اللـهُ وَتَرْضَـوْن (خطبة ٢٧)

أَيُّهَـا النَّـاسُ، الْمجْتَمِعَـةُ أَبْدَانُهُـمْ، الْمُخْتَلِفَـةُ أَهْوَاؤُهُـمْ كَلاَمُكُـم يُوهِـي الصُّـمَّ الصِّـلاَبَ وَفِعْلُكُـمْ يُطْمِـعُ فِيكُـمُ الأَعْـدَاءَ (خطبـة ٢٩)

صَاحِبُكُـمْ يُطِيـعُ اللـهَ وَأَنْتُـمْ تَعْصُونَـهُ، وَصَاحِـبُ أَهْـلِ الشَّـامِ يَعْصِـي اللـهَ وَهُـمْ يُطِيعُونَـه (خطبـة ٩٦)

لَـوَدِدْتُ وَاللـهِ أَنَّ مُعَاوِيَـةَ صَارَفَنـي بِكُـمْ صَـرْفَ الدِّينَـارِ بِالدِّرْهَـمِ، فَأَخَـذَ مِنِّـي عَشَـرَةً مِنْكُـمْ وَأَعْطَانِـي رَجُـلاً مِنْهُـم (خطبـة ٩٦)

أَلاَ وَإِنِّـي قَـدْ دَعَوْتُكُـمْ إِلَـى قِتَـالِ هـؤُلاَءِ القَـوْمِ لَيْـلاً وَنَهَـاراً، وَسِـرّاً وَإِعْلاَنـاً، وَقُلْـتُ لَكُـمُ اغْزُوهُـمْ قَبْـلَ أَنْ يَغْزُوكُـمْ، فَوَاللـهِ مَـا غُـزِيَ قَـوْمٌ قَطُّ في عُقْـرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّـوا، فَتَوَاكَلْتُـمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّـى شُـنَّتْ عَلَيْكُـمُ الغَـارَاتُ وَمُلِكَـتْ عَلَيْكُـمُ الأَوْطَـانُ (خطبـة ٢٧)

أُنْبِئْـتُ بُسْـراً قَـدِ اطَّلَـعَ اليَمـنَ وَإِنِّـي وَاللـهِ لاَظُـنّ... (خطبـة ٢٥)

وَهـذَا أَخُـو غَامِـد قَـدْ وَرَدَتْ خَيْلُـهُ الأَنْبَـارَ وَقَـدْ قَتَـلَ حَسَّـانَ بْنَ حَسَّـانَ البَكْـرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُـمْ عَـنْ مَسَـالِحِهَا، وَلَقَـدْ بَلَغَنِـي أَنَّ

الرَّجُـلَ مِنْهُـمْ كَانَ يَدْخُـلُ عَلَـى المَـرْأَةِ المُسْـلِمَةِ، وَالأُخْـرَى المُعَاهَـدَةِ فيَنْتَـزِعُ حِجْلَهَـا وَقُلْبَهَـا وَقَلاَئِدَهَـا، وَرِعَاثَهَـا مـا تَمْتَنِعُ مِنْـهُ إِلاَّ بِالاسْـتِرْجَاعِ وَالِاسْـتِرْحَامِ ثُـمَّ انْصَرَفُـوا وَافِرِيـنَ مَـا نَـالَ رَجُـلاً مِنْهُـمْ كَلْـمٌ وَلاَ أُرِيـقَ لَهُـمْ دَمٌ (خطبـة ٢٧)

أَيُّهَـا النَّـاسُ، إِنَّـهُ لَـمْ يَـزَلْ أَمْـري مَعَكُـمْ عَلَـى مَـا أُحِـبُّ، حَتَّـى نَهَكَتْكُـمُ الْحَـرْبُ، وَقَـدْ، وَاللـهِ أَخَـذَتْ مِنْكُـمْ وَتَرَكَـتْ، وَهِـيَ لِعَدُوِّكُـمْ أَنْهَـكُ. لَقَـدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيـراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَـوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْـتُ أَمْـسِ نَاهِيـاً، فَأَصْبَحْـتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّـاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُـمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْـسَ لِـي أَنْ أَحْمِلَكُـمْ عَلَـى مَـا تَكْرَهُـون (خطبـة ٢٠٨)

اللَّهُـمَّ إِنِّـي قَـدْ مَلِلْتُهُـمْ وَمَلُّونـي، وَسَـئِمْتُهُمْ وَسَـئِمُونـي، فَأَبْدِلْنِـي بِهِـمْ خَيْـراً مِنْهُـمْ، وأَبْدِلْهُـمْ بِـي شَـرّاً مِنِّـي (خطبـة ٢٥)

مَلَكَتْنِـي عَيْنِـي وَأَنَـا جَالِـسٌ، فَسَـنَحَ لـي رَسُـولُ اللـهِ صلـى الله عليـه وآلـه: يَـا رَسُـولَ اللـهِ، مَـاذَا لَقِيـتُ مِـنْ أُمَّتِـكَ مِـنَ الأَوَدِ وَاللَّـدَدِ؟ فَقَـالَ: «ادْعُ عَلَيْهِـمْ»، فَقُلْـتُ: أَبْدَلَنِـي اللـهُ بِهِـمْ خَيْـراً لـي مِنْهُـمْ، وَأَبْدَلَهُـمْ بِـي شَـرّاً لَهُـمْ مِنِّـي (خطبـة ٦٩)

المارقون

أَلَـمْ تَقُولُـوا عِنْـدَ رَفْعِهِـمُ الْمَصَاحِـفَ حِيلَـةً وَغِيلَـةً وَمَكْـراً وَخَدِيعَـةً: إِخْوانُنَـا وَأَهْـلُ دَعْوَتِنَـا، اسْـتَقَالُونَا وَاسْـتَرَاحُوا إِلَـى كِتَـابِ اللـهِ سُـبْحَانَهُ، فَالـرَّأْيُ الْقَبُـولُ مِنْهُـمْ وَالتَّنْفِيـسُ عَنْهُـمْ؟ فَقُلْـتُ لَكُـمْ: هـذَا أَمْـرٌ ظَاهِـرُهُ إِيمَـانٌ، وَبَاطِنُـهُ عُـدْوَانٌ، وَأَوَّلُـهُ

رَحْمَـةٌ، وَآخِـرُهُ نَدَامَـةٌ، فَأَقِيمُـوا عَلَـى شَـأْنِكُمْ، وَالْزمُـوا طَرِيقَتَكُـمْ، وَعَضُّـوا عَلَـى الْجِهَـادِ بِنَوَاجِذِكُـمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُـوا إِلَـى نَاعِـقٍ نَعَـقَ: إِنْ أُجِيـبَ أَضَـلَّ، وَإِنْ تُـرِكَ ذَلَّ (خطبـة ١٢١)

أَلاَ وَإِنَّ الْقَـوْمَ اخْتَـارُوا لِأَنْفُسِـهِمْ أَقْـرَبَ الْقَـوْمِ مِمَّـا تُحِبُّـونَ، وَاخْتَرْتُـمْ لِأَنْفُسِـكُمْ أَقْـرَبَ الْقَـوْمِ مِمَّـا تَكْرَهُـونَ، وَإِنَّمَـا عَهْدُكُـمْ بَعَبْـدِ اللـهِ بْـنِ قَيْـس بِالأَمْـسِ يَقُـولُ: إِنَّهَـا فِتْنَـةٌ فَقَطِّعُـوا أَوْتَارَكُمْ وَشِـيمُوا سُـيُوفَكُمْ فَـإِنْ كَانَ صَادِقـاً فَقَـدْ أَخْطَـأَ بِمَسِـيرِهِ غَيْـرَ مُسْـتَكْرَه، وَإِنْ كَانَ كَاذِبـاً فَقَـدْ لَزِمَتْـهُ التُّهَمَـهُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْـرِو بْـنِ الْعَـاصِ بِعَبْـدِ اللـهِ بْـنِ الْعَبَّـاسِ (خطبـة ٢٣٦)

كَلِمَـةُ حَـقٍّ يُـرَادُ بِهَـا بَاطِـلٌ! نَعَـمْ إِنَّـهُ لا حُكْـمَ إِلاَّ للـهِ، ولكِـنَّ هـؤُلاَءِ يَقُولُـونَ: لاَ إِمْـرَةَ (خطبـة ٤٠)

أَلاَ مَـنْ دَعَـا إِلَـى هـذَا الشِّـعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَـوْ كَانَ تَحْـتَ عِمَامَتِي هـذِهِ (خطبة ١٢٧)

إِنَّـا لَـمْ نُحَكِّـمِ الرِّجَـالَ، وَإِنَّمَـا حَكَّمْنَـا الْقُـرْآنَ. وهـذَا الْقُـرْآنُ إِنَّمَـا هُـوَ خَـطٌّ مَسْـتُورٌ بَيْـنَ الدَّفَّتَيْـنِ لاَ يَنْطِـقُ بِلِسَـان، وَلاَ بُـدَّ لَـهُ مِـنْ تَرْجُمَـان، وَإِنَّمَـا يَنْطِـقُ عَنْـهُ الرِّجَـالُ (خطبـة ١٢٥)

نهيتنـا عـن الحكومـة ثـمّ أمرتنـا بهـا، فمـا نـدري أيّ الامريـن أَرشـد؟ فصفـق عليـه السـلام إحـدى يديـه علـى الاخـرى ثـمّ قـال: هـذا جَـزَاءُ مَـنْ تَـرَكَ الْعُقْـدَةَ (خطبـة ١٢٠)

أَصَابَكُـمْ حَاصِـبٌ وَلاَ بَقِـيَ مِنْكُـمْ آبِـرٌ، أَبَعْـدَ إِيمَانـي بِاللـهِ

وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ (خطبة ٥٧)

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البَرَاءةِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ.)

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ (خطبة ١٢٧)

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ، وَلاَ تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ (خطبة ١٢٥)

فَإِنَمَّا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتَرَاقُ عَنْهُ،

فَـإِنْ جَرَّنَـا الْقُـرْآنُ إِلَيْهِـمُ اتَّبَعْنَاهُـم، وَإِنْ جَرَّهُـمْ إِلَيْنَـا اتَّبَعُونَـا.)

فَلَـمْ آتِ لاَأَبَـا لَكُـمْ بُجْـراً وَلاَ خَتَلْتُكُـمْ عَـنْ أَمْرِكُـمْ، وَلاَ لبَّسْـتُهُ عَلَيْكُـمْ، إِنَّمَـا اجْتَمَـعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَـى اخْتِيَـارِ رَجُلَيْـنِ، أَخَذْنَـا عَلَيْهِمَـا أَلاَّ يَتَعَدَّيَـا الْقُـرْآنَ، فَتَاهَـا عَنْـهُ، وَتَـرَكَا الْحَـقَّ وَهُمَـا يُبْصِرَانِـهِ، وَكَانَ الْجَـوْرُ هَوَاهُمَـا فَمَضَيَـا عَلَيْـهِ، وَقَـدْ سَـبَقَ اسـتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَـا فِـي الْحُكُومَـةِ بِالْعَـدْلِ، وَالصَّمْـدِ لِلْحَـقِّ سُـوءَ رَأْيِهِمَـا، وَجَـوْرَ حُكْمِهِمَـا (خطبـة ١٢٧)

فَأَجْمَـعَ رَأْيُ مَلَئِكـمْ عَلَـى أَنِ اخْتَـارُوا رَجُلَيْـنِ، فَأَخَذْنَـا عَلَيْهِمَـا أَنْ يُجَعْجِعَـا عِنْـدَ الْقُـرْآنِ، ولاَ يُجَـاوِزَاهُ، وَتَكُـونَ أَلْسِـنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَـا تَبَعَـهُ فَتَاهَا عَنْـهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَـا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَـوْرُ هَوَاهُمَـا، وَالإِعْوِجَـاجُ دَأْبَهُمَـا، وَقَـدْ سَـبَقَ اسْـتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَـا فِـي الْحُكْـمِ بِالْعَـدْلِ وَالْعَمَـلِ بِالْحَقِّ سُـوءَ رَأْيِهِمَـا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَـا، وَالثِّقَـةُ فِـي أَيْدِينَـا لِأَنْفُسِـنَا، حِيـنَ خَالفَـا سَـبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَـا بِمَـا لاَ يُعْـرَفُ مِـنْ مَعْكُـوسِ الْحُكْـمِ (خطبـة ١٧٧)

مَصَارِعُهُـمْ دُونَ النُّطْفَـةِ، وَاللـهِ لاَ يُفْلِـتُ مِنْهُـمْ عَشَـرَةٌ، وَلاَ يَهْلِـكُ مِنْكُـمْ عَشَـرَةٌ (خطبـة ٥٨)

كَلاَّ وَاللـه، إِنَّهُـمْ نُطَـفٌ فِي أَصْـلاَبِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَـاءِ كُلَّمَـا نَجَـمَ مِنْهُـمْ قَـرْنٌ قُطِـعَ حَتَّـى يَكُـونَ آخِرُهُـمْ لُصُوصـاً سَـلاَّبِينَ (خطبـة ٥٩)

لاَ تَقْتُلُـوا الْخَـوَارِجَ بَعْـدِي، فَلَيْـسَ مَـنْ طَلَـبَ الْحَـقَّ فَأَخْطَـأَهُ،

كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ (خطبة ٦٠)

أما إِنِّهُ سِيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ (خطبة ٥٦)

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاًّ شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَاالظَّالِمونَ فِيكُمْ سُنَّةً (خطبة ٥٦)